# لمسة
# هوا ..
# لكل بداية نـهايـة.....

***اهداء الى:***

# الباب الأول

# ذكريات جميله

- أصل كل حكاية وبداية بتبددي بقصة أو حدث... وأنا بقول كده بناء على خبريتي الطويلة وطول عهدي بالطبيعة البشرية... عمري ما شوفت في يوم من الأيام قصة ساقتها الرياح الفاضية نحو البداية... أو حاجة من العدم ابدت منها حكاية...

دونت هذه الكلمات بخط رفيع وبارع في كراسي القديم الذي اعتدت أن أدون فيه ذكرياتي وبعض من الأحداث التي تسوقني نحو الجنون اتذكرها بين الحين والآخر...

آملت أن يطلع على محتوى ما في هذا الكتيب بعض الأشخاص المعينين، بما فيهم أصدقائي والقليل معارف أصدقائي وندرة غيرهم.

أسفل ضوء الشموع الخافت، على طاولة عريضة عكست بريق الشمعة الساحر غرست قلمي الحبر في كراسي العتيق الذي شهد أوراقا أشحبت صفارا، وصارت على هذا نحو بعد تاريخ انتاجها في التسعينات منذ ما يقرب العشرين عاما... نثرت على حدود الورقة اسم هذا الشخص وانا استحدث هيئته البارزة عبر مخيلتي... يونس...

- يونس رجب... يونس رجب هو صاحبنا الغريب اللي ابتدأت قصتنا بيه من سنة تقريبا...

اقتربت إلى كأس خمر وضعته باكرا على الطاولة، ارتشفت منه رشفة هنيئة كفيلة أن تكفيني بنسيان كل شيء إلا ملامح هذا الفتى البراق، الذي انغرس بهيئته كلها كثقوب في جدار ذاكرتي الواسعة منذ قديم الأزل...

رجل في السابعة عشر من العمر، شعره قصير، ذقنه رفيعة ومدببة، هناك خط على حاجبه الأيسر يفصل بين شعر الحاجب وبشرته الوردية الناعمة والرقيقة، لطالما ارتدى طاقية سوداء اثناء عمله معي كمساعد عندي لا يقول

لا أبدا... صعب علي أن أنسى هيئته البارزة هذه، كما صعب على حلقي اخراج اسمه بنبرة مستقرة دون أن أشعر باحتراق شديد ينبع من حلقي مع كل حرف في اسمه الفظه ببطيء شديد.

- يونس رجب... طب وقصته ايه...؟

سألت نفسي في احساس أشبه بالخوف والتشوق، دون أن أخاف، مدعيا أنني لا أعرف شيء عن أصل هذا الشاب مفتول العضلات، كي أجيب على سؤالي مرارا وتكرارا كما يفعل الطفل في حداثته حينما يلتهمه الشغف جراء أمر ما فيسأل نفسه عن هذا الشيء ويجيب عليه آلاف المرات.

نثرت على الكراس كلمة... مرآته... وانا أشعر أن مصيري الليلة معلق بهذه الكلمة كما علقت أمصار الكثيرين والكثيرين قلبي على جدار الحائط بسببها.

تخيلت سحابة بيضاء في السماء سكنت عليها امرأة فاتنة الجمال، لا يصل أحد إليها إلا يونس رجب بأجنحته الخلابة، منبسطة من أقصاي الشرق إلى أقاسي الغرب في بياض شديد...

ثم تخيلت هذا الملاك الجميل يبعده القدر عنه اكراهيا بسبب مفاتن الحياة، فيظل يونس وحده مكانا، شاعرا بخيبة الأمل لا يعرف ما يفعل، فيدفعه القدر إلى أن يلجأ إلى أناس أشرار أمثالي...

عقبت وأنا أنثر هذه الكلمات المعبرة في كراسي بعد أن أتخيلت هذا المثال الوهمي...

- وهي دية قصة يونس...

منذ عاما تقريبا...

كان شابا وسيما شديد التبسم والفضول، يغلب على وجهه طابع البشاشة والسعادة... لا تراه أبدا حزينا أو ذو ملامح وجه قاسية كأغلب شباب سنه، في منزله الوحيد في حي (.....) مع زوجته الحسناء نور عبد السلام.

لم يمضي وقت طويل على استمرار هذه العلاقة الزوجية بينهم على رتم متزن، إذ لأنه حدث ما يحدث في بعض المنازل الزوجية هذه الأيام... اقتلعتها أمواج الحياة بمفاتنها الدنيوية عن جزورها...

أذكر أن الصبي الشاب قال لي حينما تقابلنا أول مرة منذ نصف عام عن هذه العلاقة الممزقة... واصفا لها بعين حمراء اكتظت بمشاعر الكره والغضب، وعين آخري متقشرة يكاد الندم يدب فيها سنونه الحادة فيفقعها ويخلصها من عذاب تابعته اثناء هذه العلاقة، وبعد انهيارها...

كان يونس يدخل على زوجته كل يوم ساعات العمل، الساعة الرابعة عصرا... يسألها بنفس بارد خرج من جفون فمه العطش، ونبرة هادئة انبعثت من حلقه الصغير حجما وقوة...

- عاملة ايه يا حبيبتي... أنا جيت من الشغل خلاص؟

لم يظفر منها في بادئ الأمر إلا بالعطف في الرد كل يوم...

- انا كويسة... وأنت... أخبارك...؟ عامل ايه في الشغل النهردا...؟

يداعب يونس ذقنه المدببة بطرفي اصبعيه قبل أن يأخذ مقعدا جوارها على السرير بثيابه الرسمية المهندمة... متذكرا معتاد عمله كل يوم في الشركة الكبيرة التي عمل بها كمدير حسابات تجارية، يدبر أسعار بيع وشراء المتنجات التي ستسوقها الشركة، أو يوزع بعض الأعمال بين الحشود العاملة بها إن حالفه الحظ وكلفه مدير الشركة بهذا، ثم يدخل في لعبة الأسهم الرابحة والخاسرة آملا أن يؤدي عمله على أكمل وجه حتى تصير كل أسهم الشركة رابحة حتى يرضى المدير عنه ويكافأه من قصور المال ما لا

يحتسبه أبدا... عمل كليشيه لا يحظى به كل شاب إلا من اجتهد على نفسه حتى يصير مديرا ماليا بعد تخرجه من كلية التجارة ويكلف بمثل هذه الوظيفة المربحة...

- ما أنت عارفة... سيناريو احمد وحسن كل مرة...

طقطقت نور اصابعها وهي تنظر إليه بآذان ادمنت كول الملل من سماعها هذا الحوار مرارا وتكرارا...

مسحت على جانبها الأيسر المتعرق، ومالت نحو زوجها السازج كي تفك عنه ربطة عنقه الزرقاء التقليدية، التي لم يرتدي سواها منذ بداية عمله في هذه الشركة الكبيرة...

ثم سألت وهي تفك ربطة العنق عن حلق زوجها يونس...

- وهو سيناريو احمد وحسن ده مابيخلصش خالص...؟

هز يونس رأسه في أسى وحزن شديدا، زاعما وهو ينظر في أعين زوجته التي شردت حول شعر صدره المكشوف بعد خلعه البذلة...

- انت عارفة... عمره ما هيخلص...

انتزعت نور رابطة العنق وحذفتها بكل قوة على الشماعة، ثم حملت السترة بعيدا بعد أن نزعها زوجها عن جسده الرطب بسبب حرارة شديدة سادت اليوم، تبلغ الاربعين صباحا.

وتذكرت نور السيناريو الممل قبل أن يخلع يونس بنطال سترته المهذب، الملون رمادي يميل نحو السوداء ويضجع جوارها في تعب شديد...

ثم قالت ببال ساخط نبت أسفل نبرة هدائة وعميقة...

- هو مافيش حل لاحمد وحسن دول في الشركة بجد...؟

افترش يونس جسده كله على السرير، نام على ظهره وامتد باصابعه الناعمة نحو وجه نور يداعب ملامحه الرقيقة، التي استترت أسفلها مشاعر سخط وغضب، قائلا وهو لا يدري عن الحريق الناشب في صدر زوجته، التي وددت لو أن تنفجر فيه بهذا الحريق وفي المنزل كله كي يشتعل ويموت الجميع فترتاح هي ويرتاح هو...

- احمد وحسن بيكرهم بعض... ومش طايقين شغل مع بعض في الشركة... بس مع الأسف اللي اتنين ليهم دور كبير في الشركة... من غير ده ومن غير ده الشركة هتقع... عايزانا نعمل ايه يعني...؟

سخطت نور بكل عفوية، ثم صاحت مستنكرة وهي تردف بوجها النحيل انزلاقعا من على يد زوجها الناعمة التي ملامح وجهها الصغيرة...

- بس دول مش بيجيوا على نفسهم بس بالضرر...! الشركة تقريبا كلها بتاخد جزاااا بسببهم! ماحدش عارف يعملهم حاجة بعد كل الوقت ده...؟ ولا حتى أنت...؟!

ساق ليونس الخاطر الذي الهب عقله، كيف أن مرتبه هبط من 8،300 جنية شهريا إلى 5،000 جنية منذ نصف عام تقريبا بسبب أخطاء غيره، العاملان المتنمران بالذات، حينما جاء أحمد وحسن واحتكر أعمال الشركة، مسيطيرين على مركزين قويين بها بأمر من المدير الذي اكتشف موهبتهما في هذين العملين، أحدهما يسوق للمنتجات والآخر يعطيها الأسماء التجارية، وسرعان ما نشبت الصراعات بين الرجلين اختلافا في قضية العمل حقدا ومقطا وفخرا بالخبرة، فكان احمد يتمرد على بعض الأسماء التجارية الجديدة التي يمنحها حسن إلى بعض المنجات لأنها تبدو سخيفة دون معنى بالنسبة له، وكان حسن لا يطيق أن يسمع من أحمد أي اعتراض على ناتج عمله ويزاوله قائلا: أنت مش فاهم حاجة في الاسماء التجارية ديه... ثم

يتردد قائلة طول اليوم على كل عامل بالشركة: اللي مالوش خبرة واقدمية في مجال العمل يسكت ويحط لسانه في بوقه...

قرر المدير أن يجازي الجميع بتقليل جميع مرتبات العاملين بالشركة بنسبة 40% حتى يحل الرفيقان هذه القضية، ولكن احمد وحسن لم يعود الهبوط في مرتبات الشركة عليهم بأي خسارة وتغير في نمط الأخلاق في ميدان العمل، وظل الاثنين ديكين سوداوين ينقرا بعضهم البعض كل يوم بسبب الغل والحقد والتنمر دون انتهاء، الأمر الذي جلب أزمة مادية على العديد من العاملين بالشركة مثل يونس الذي شهد منزله ازمنة مالية حادة، أو شيء من هذا القبيل، منذ أن تقلد احمد وحسن عملهما.

أغلق يونس عينه وأدعى أنه لم يسمع شيئا من كلمات زوجته المتنمرة، بل وأفاق فجأة بعين حمراء وبارزة، تنتمي لوحش من وحوش القرون الوسطى حينما صرخت زوجته بكل عنف وقوة (...) في آذانه فجأة...

- الفلوس.....! الفلوس مش مكفيانا في الوقت ده.... نعمل ايه بخمستلاف جنية في 2017....؟! دول ولا ليهم أيت-

لم تكد الزوجة الغاضبة نور، التي آملت في حياة تسودها الثراء المادي الفاحش مع حياة زوجية سعيدة ظانة أنها ستحصل عليها مع يونس عندما تتزوج شخص مثله سيتقلد المراقي في الشركة على مدار الأعوام ويتقرب من الكمال في المرتب الشهري حتى يصير مرتبه

00،20 جنية شهريا، تنهي كلامها حتى صاح يونس إليها بوجه ذئب مارد شرد داخله احاسيس السخط على الحياة والعجز...

- أعمل ايه...؟ هو ده بأيدي...؟ المدير اللي معيهم وهم ليهم دورهم الكبير في الشركة...! ديه مش بتعتبي...! انا عامل اللي علي وزيادة...! اروح أسرق...؟ أنهب...؟ أقتل علشان الفلوس...؟

ثم غرس رأسه في المخدة كي لا يسمع موجة تسونامي من الغضب ستتساقط عليه أدراجا متاعقبة، واحدة تلو الآخرى، تتوالى بقوة متزايدة تنغذه بعنف في مشاعره والنمط الذي يدرس به عقله أسلوب الحياة، حتى تحل الموجات المتتالية قبل الموجة الأخيرة التي ستكسر مشاعره وتهلك عقله، فتطلق العنان لوحشا غاضب ينشب معاركه في الحوار مع أقرب الناس إليه بلا مبالاة إلى ما يقوله... قد يخسر كل الأناس القريبة إليه بسبب هذا الوحش المتمرد الذي خرج عن طوع سيطرته وكبته في جزور صدره العميق...

ولهذا دس يونس رأسه في المخدة حتى لا يصل إلى هذه المرحلة وهو

يتوقع أن يسمع من زوجته كلمات صاخبة مزعجةن تكون في آذانه كالوساس الذي يضطرب عليه نومه كل ليلة، وسواس العمل ومشاكل الحياة، فلا ينام من الظهيرة إلى العشاء كما لا ينام من العشاء إلى الفجر، ملتمسا بكل وهن شديدا في نومه راحة من مشاق الشغل واجهاض الجسد الناتج عن التفكير وساعات العمل الكثيرة...

ولكن ما حدث تمام غير ما توقعه يونس هذه المرة، فلم يسمع صوت زوجته في هذا اليوم، لا توبخه ولا تعنفه كما تفعل اعتيادا ككل يوم.

واغتنم يونس الصدفة الغريبة التي لا يجدها تتكرر إلا كل مائة عام، فنام على الفور دون أن في الأمر ويزعج نفسه على الفاضي...

لم يسأل الرجل نفسه هذا السؤال: هي مالها النهاردة مش عوايدها... لا لا... فيه حاجة غلط... المفروض تتخانق معايا... وشرد في ثبات عميق، تاركا ورائه زوجته التي لم يشعر أنها ضجعت جواره على السرير واتجهت نحو المطبخ أو الحمام.

# الباب الثانى

# تخدير ميت

أخذت شربة هنيئة من الكأس مرة آخرى، ونظرت إلى انعكاسي في المرآة ذات البراويز الذهبية المفقعة، ثم مسحت كحولا طاف حول شفتي المتشققتين بأطراف يد شاحبة وكاهلة. طبطبت بعدها على شعر رأسي الأبيض كي أتذكر كم بلغت من العمر، خمسة وستين عاما في هذه الدنيا العقيمة ولا أزال على قيد الحياة ارتكب أبشع الجرائم مثل القتل، واستمتع باقتراف أفعال الشر بالدجل والشعوزة.

داعبت قصيلات الشعري الرمادية القصيرة التي تفشت حول ذقني منذ اربعين عاما كوباء الطاعون في آروبا، ثم كشفت الكراس بعيوني مرة آخرى. انتهيت توا من شرب سيجارة كبيرة كنت ارتشفها بتمعن ومتعة في فترة راحتي قبل أن أعود إلى الكتابة بالقلم الحبر العتيق الذي تلازم مع اصابعي عقود كثيرة لم يتفارقا خلالها أبدا.

رصفت بحور من الكلام بالحبر المنثور، ورسمت الكلام بمهارة على ورق الكراس كما يفعل الخطاط البارع وأنا أسرد بصوت ملحوظ ما نثرت...

- بيقولوا الماضي ما بيلعبش دور كبير في تأثر على حاضر الشخص... بس انا بختلف في ديه... الماضي بيأثر على كل انسان فينا جدا... أنت مين وبتعمل ايه دلوقتي في الحاضر بتاعك...؟ اللي يجاوب على الأسئلة ديه ماضي كل انسان... العنصر الزماني اللي بيحدد طريقه تعايشه مع الحاضر.

داعبتني صورة يونس لبرهة وهو يرتدي زيه الأسود وقفازات سوداء غطت على لون بشرته ليلا، ثم داهمتني رؤية مختلة الملامح لرجل يحمل سلاحا – وبمختلة الملامح أقصد ان الرؤية ليست واضحة بما فيها الكفاية لكي أتعرف على الرجل من ماهيته –

وكل ما تمركزت حوله الرؤية لقطة الرجل وهو يحمل مسدسه ويضع أنفه الطويلة على المخدة كي يقتل هذا الشخص المسكين دون أن يشعر به أحد.. وإذا به يطلق النار ويضغط على الزند بأصابع باردة لا ترتجف، دون أن

يفكر مرتين في العواقب الوخيمة التي ستحل عليه من القانون ومن أهل هذا الرجل الذين لن يسكتوا عن حقهم أبدا حتى يموت هذا الرجل القاتل.

- يونس... يونس... ليه بيحصلك كل ده...؟

سألت شيطاني الوهمي مارد بنفس بارد وعميق بعد انتهاء الرؤية، تخللت نفسي البارد نبرة مستوية ومعتدلة تعزف الحان كهل يتلعثم طول اليوم بريق جاف، لا تكشف في اعماقها بحور من الفضول والشغف أستررت في القاع.

سطرت خطين عريضين بالحبر المنثور أسفل السؤال السابق في منتصف الصفحة، ولم أهتم ببعض من الحبر الأسود طار من سن القلم وانا ارفعه بعيدا كي اقلب الصفحة إلى الصفحة المجاورة، ملوثا مظهر صفحة البيضاء الجديدة بنقاط سوداء قذرة تناثرت حول الصفحة بأشكال قذرة.

انتظرت سماع الاجابة على هذا السؤال من شيطاني الوهمي مارد وأنا أتأمل كل حرف ملتوي في السؤال شكلته تشكيلا عربيا صحيحا مضفيا نوع من الفنون العربية الأندلسية على الكلام في كراستي – فن التخطيط والتشكيل.

ركبت آلة الزمان عشرين عاما إلى الوراء بعد أن أهملني مارد ولم يجب على سؤالي... وتخيلت نفسي الرجل الأجوف الذي يتفاعل مع الطبيعة بكل عنصر حي وميت فيها، ولا تتفاعل الطبيعة معه، كي أظفر بالإجابة على سؤالي.

تخيلت نفسي الازم الطفل يونس الصغير منذ مجيئة إلى هذه الدنيا، أدرس افعاله وهو لا يراني، بانيا هذه المقاطع الحية من خيلاتي الوهمية بناء على كلام يونس معي وسرده لي قصته مع هذه الدنيا منذ الصغر.

كان يونس طفلا صغير ورقيق منذ أن أتى إلى هذه الدنيا هو، لم يعرف سوى اللهو والعبث، ولم يشأ أن يمضى حياته كلها على نحو آخر غير هذا النحو، ولكن سرعان ما قتلت الحياة هذه البرائة والطفولة تدريجيا، الأمر الذي أثر على حاضر الرجل ومستقبله بالسلب. وها أنا الآن آراه أمام عيني على هيأتين، هيأة الطفل الذي كان هو، وهيأة الرجل المدخن الذي أدمن اصنافا عديدة من المخدرات بسبب مشاكل كثيرة دمرت حياته السعيدة. بعد سن السادسة والعشرين من العمر..

ولكن كيف...؟

ببساطة، لأنك حينما تكون شابا صغيرا وتواجه مشاقا كثيرة أكبر من سنك، أو على النحو الأدق، تكسر الحياة عواطفك الشبابية البريئة بماشكل صعبة ومعقدة تظن أنك لن تحلها أبدا وأنك أنت السبب الجزري فيها، ترى نفسك وحش لا يستحق حياة الراحة والطمئنينة النفسية، فتبدأ بتقليد أفعال الوحوش التي تقتل الراحة النفسية والطمأنينة على نحو بشعا كالتدخين والقتل والادمان إلخ...

ماضي الفتى منذ نشأته في الحياة كان ماض تعيس آثر على حياته كلها...

وماذا كان هذا الولد يفعل في سن الثانية من العمر...؟ كان يلهو باللعب الصغيرة التي اشتراها له والده، مهندس معماري يمضى يومه كله في عمله ولا يعود إلا فترة المساء.

حينما كبر قليلا ودخل المدرسة، كابد الولد مشكلة في التواصل مع أبناء عمره. لم يكن هذا النوع المحاظيظ من الأطفال الذي تحاور مع بني اخوته، أشف على هذا أنه وحيد أسرته بلا أخ ولا أخت، وكل ما ملك بيد يديه أم تنعزل في المطبخ طوال اليوم ووالد لا يتحدث معه لأنه لا يعود إلا حينما يحين المغرب أو قبله بقليل، فينام حتى اليوم التالي.

مقط الطفل الصغير الأوضاع المحيطة دون أن يقنع نفسه أنه يمقطها، وبدأت رحلة كرهه الشديد لهذه الدنيا – شيئا فشيئا – حينما كبر وبلغ مرحلة الاعدادية. رأى والده يسافر إلى دول الخليج وإلى اروبا باحثا عن العمل تكسبا للرزق الذي يهيئ أسرته إلى حياة كريمة، لأن العمل في مصر صعبا بعض الشيء على أمثال والد يونس، الذى لا يقبل إلا الدقة والاداء في العمل دون أن يخادعه أحد بقدر زائد من المال حتى يبني معمارا قد يتهدم بعد خمسة اعوام.

وصل إلى الثانوية ولم يكد والده يخلو من العمل في الخارج، في حين أن امه عانت مرضا خبيثا في هذه الفترة تطور سريعا قبل أن يلتفت إليه أي أحد من هذه العائلة الصغيرة، لا يونس ولا ابوه. وكانت النهاية الحزينة أن الأم لاقت مصيرها المذعر في أقل من عامين.

لم يتبقى للولد الصغير في منزله إلا الوحدة، وذكرى هذه الحادثة المؤلمة التي حصرت مستقبله على زاوية الحزن والاكتئاب.

قال ثم قال وكرهه للدنيا يتزايد بمعدل هائل بعد وفاة والدته...

- طول عمري هبقى كده... هشوف بلاوي كتير وعمري ما هلاقي حد يحبني قدك ياما... عمري ما هرتاح نفسيا أبدا...

ولا أشك أن ذكرى هذا اليوم لا تزال تداعب نظره بالسوء إلى يومنا هذا، فيرى ملاكه الأبيض الطاهر الذي بعث الله به ليكون سنده في الدنيا بعد درب من الوحدة سلكه اكراهيا نتيجة جزء من الاهمال قد انشطر، وصار حزينا باكيا يعشق لون سواد العيون ولا يرى الدنيا إلا بهذا اللون، نفس اللون الذي تمثله في زي هذا المرض الخبيث الذي رسمه في مخيلته كغول مسخي كبير، يرتدي ردائا أسود وطويلايتمدد إلى أقاسي ركبتيه حتى يصل إلى نعله الممزق الذي يتخذ به خطوتين خفيفتان نحو والدته... فيقوم بنزع روحها من

جسدها بمنجل ضخم قابض للأرواح، قبضه من لجامه جوار كنانة سهام كبيرة سوداء اللون، ربضت خلف ظهره الملتوي.

أنتهى الصبي من فترة الثانوية بقلب مكتئب ونفس مهمومة، وآمل أن يصنع مستقبل باهرا بالرغم من هذه الآوبئة السيكولوجية، ولكن سرعان ما تحطمت سيكولوجيتية وصارت أكثر سوء من زي قبل حينما صدم "بالمجموع" الذي لم يأهله إلى "كلية من كليات القمة" كما يرجو، واكتفى بكلية التجارة ظانا بهذا أن مستقبله قد انهار دون أن يفكر في أمر مستقبله مرتين، وأن الله مغير الأحوال...

عاد أبوه من عمله بالخارج مرتين، مرة بعد وفاة الأم ببضع أيام، ومرة آخرى وأخيرة بعد وفاتها بأعوام كان قد أنتهى خلالها من عمله وصنع قصورا من المال. نشبت المواجهة الفاصلة بين الوالد والابن حينما ندم يونس والده بشجاعة مفرطة لم ينبغي لها أن تظهر أمام والده أبدا على موت امه، واخبره أنها ماتت لأنه لم يكن جوارها ولم يوفر لها الرعاية الصحية الكاملة، بل كان مشغولا بتعبأة زيره بالمال.

انتهت الأوضاع ببطر العلاقة بين الوالد والابن، وتمزق شمل العائلة مرة وللأبد في نفس عام التخرج الذي ظن أنه سيكون عاما مشئوما عليه.

وبعد أن أدرك الفتى أنه صار محروما من دعم والده له المادي، وفي التأهل إلى ميدان العمل، صغط على نفسه كل يوم كي يتحصل أكبر قدر من الخبرة في ميدان العمل، فاستطاع أن ينجز ما لم ينجزه شاب في مثله، وتقلد رعاية الشئون المالية بالشركة وصار عضو فيها.

ومع تقلده هذا المنصب تعرف على زوجته نور اثناء حفل زفاف صديقه العزيز، ورأى فيها ملاك طاهر وليست مجرد زوجة عادية مع أول جلسة تحاورا فيها سويا، بل وزد على هذا أنه رأى فيها الأنثى المثالية التي ستلعب

دور الأم معه في المستقبل حينما يتزوجا. ولكن نور لم ترى فيه أكثر من أنه مجرد انسان سيجعلها سعيدة بماله ومنصبه على المدى الطويل، وبمعاشرته الزوجية لها على السرير كأي انثى تقليدية، وفي النوادي وبعض الحفلات الرسمية.

الوجه العابس الذي لازم الرجل لأكثر من عشرين عاما محي تماما ليلة دخلتهما، وارتمست على وجه الرجل ابتسامة سعيدة نبضت من القلب لمدة 220 يوما... قبل حدوث ما لم يتوقع الفتى الشاب حدوثه حينما حلت الأزمة المالية على كل عامل بالشركة بسبب مشكلة حسن واحمد.

شبح الرجل طاف حول المنزل كالمجنون يبحث عن كل أنواع الأدلة بعد هذا اليوم الذي لم تضجع نور جواره على السرير ولم تتعارك بقبيح الكلام معه ككل ظهيره حينما ظن أن نور سئمت منه وبدأت تخونه بعد هذه الحادثة، ولم يكن ظنه خطأ على الأرجح.

لعقت طرف اصبعي بلساني ودعكته في طرف الورقة وانا اقلبها...

غطست القلم الجاف في الحبارة قبل أن أرصف شارعا من الأحداث التي توالت بعد "اليوم المشئوم" في حياة يونس كما سماه...

نهض يونس ليلة هذا اليوم متوقعا غداء تقليدي كالعادة من يد زوجه نور، ضرب على كرشه الصغير وهو ينهض من على السرير فأسرع إلى المطبخ متأهبا بزيره العريض وفمه الجائع إلى حلة محشي كبيرة توقع أن نور حضرتها له صباعا صباعا بأصابعها المدقسة، التي لاطالما أمضى لياليه طويلة يشكر فيها بعد جلوسهما سويا على الغداء ليتغذا معا بهذا الطعام القدسي من صاحبة الأصابع المقدسة.

دخل المطبخ ولم يجد شيئا على البوتجاز العتيق، البوتجاز الذي اشتراه منذ أول يوم بعد زواجهما ومع هذا بدا لو كان فرن لطهو الطعام منذ أيام الحرب العالمية الثانية جيل الاربعينات...

محص المطبخ مرة آخرى بعينيه الواسعتين، ولم يجد ولا حلة ولا كبريت ولا أي آثر من آثار الطهو الليلة.

قال لنفسه بسزاجة تامة، ظانا أن زوجته كانت متعبة للغاية في هذا اليوم لدرجة أنها لم تطهو شيئا...

- شكلها كده هلكانة جدا... مش هاعتبها... هطلب دليفري...

ثم نظر إلى الساعة الصغيرة المعلقة على حائط الطرقة خارج المطبخ وهو يقول...

- بس اه... الساعة كام... اه ده...؟

رمق عقرب الساعة بأنفاس سريعة، وقال في ذهول شديد...

- الساعة حداشر ونص بليل...! أنا راحت علي نومة زي ما حصلي من يومين...! ديه تلاقيها ماتت من الجوع...! انا غبي فعلا...! رايح اصحيها ونطلب حاجة ناكلها سوى...

اتجه بعدها نحو غرفة الأطفال، غرفة على يمين غرفته الزوجية أعدها لطفلهم المستقبلي، او أطفالهم في المستقبل إن حالفهم الحظ ودامت المحبة والود بينهم من معاشرة زوجية حسنة، متوقعا أنه سيجد زوجته بها...

طقطق الباب بمفاصل أصابعه طقطات قوية... ولما سئم من الرد على آذنه لدخول الغرفة بالصمت السائد، فتح الباب برفق، وتسلل إلى أوتار الغرفة كلص تقلد الخطوات الهادئة السريعة أسفل ضوء الطرقة الخافت وظلام الغرفة الدامس...

فتح نور الغرفة، وتأمل الغرف ببصره نظرات سريعة... وأحس أحد يقتلع قلبه من صدره ويضمه إلى كفه، ضاغطا عليه بكل قسوة حتى ينفجر القلب

بين يديه... كل هذه الاحسايس المعقدة نبعت من عروقه لأنه لم يجد زوجته في الغرفة.

- لا هي في القوضة بتاعة العيال ولا هي في قوضتي... ولا حتى في المطبخ ومافيش أي آثر ليها انهردا... زي ما تكون مكانتش موجودة...

فكر في الاتجاه نحو الحمام لكي يلقي نظرة أخيرة قبل أن يغلف نفسه بثياب خفيفة سيلتقطها من على الحبل أو الشماعة بسرعة كي يبحث عنها وسط ضباب الليل إن لم يجدها في المنزل، وبعد أن دخل الحمام بساقه اليمنى سمع صوت المفتاح يغرس في الباب ويشق طريقه خلال قفله...

رفض أن يرى أن زوجته هي التي تفتح الباب وتدخل البيت في مثل هذه الساعة، أجحفه الجنون والقلق والاضطراب العصبي مع احتكاك المفاتيح بالباب، وظن لصا اقتحم البيت وسرق المفاتيح وها هو الآن يدخل البيت من بابه بطريقة رسمية للغاية... كان يرتجل أي شيء ينهيه عن التفكير أن زوجته هي التي تفتح الباب بمفتاحها...

لم يرد أن يطرأ على باله مطلقا أن زوجته هي من تفتح الباب الآن...

ربض الرجل مكانه مصدوما وهو يستقبل نورا في هيأة غرية للغاية وزينة مبالغ فيها، لم يعتد أن يراها تتزين في مثل هذه الهيأة لوقت طويل... وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل تحديدا! درس يونس ملامحها من الساق العراية إلى التنورة السوداء الضيقة فوق الركبتين التي كشفت ملامحها جسدها السفلي ببروز أسفل بلوزة زرقاء ضيقة كشفت بروز صدرها الضيق في الملابس، وجهها المدعوك بالماك الاب الذي لم تتزين به لمدة اسبوعين...

بدت نور مغرية شديدة الاغراء في زيتنها هذه التي لم تتزين بها ليونس قرابة شهر، وتزينت بها في هذا اليوم كأنما كانت تتزين لشخص آخر غيره في مثل هذه الساعة.

خالط يونس زوجته النور بالسؤال حينما استقبلته بوجه مصدوم وهي تفتح الباب في خلسة، كما لو كانت لصة تتسلل إلى سرقة البنك ليلا حريصة على أن لا يلمحها أحد وهي تسلك الخطوات السريعة بأرجل خفيفة وأنفاس مكتومة.

سأل يونس زوجته بصوت طرق الآفاق كالرعد... وملامح الغضب تظهر على وجهه شيئا فشيئا...

- ممكن اعرف كنت فين باللبس ده...؟

نظرت نور إلى الأرض مهملة السؤال، وسلكت خطوة سريعة تجاه الغرفة...

وقف امامها يونس معترضا الطريق كالحاجز... مانعها لها الدخول إلى الغرفة ملتسمة الاجابة على السؤال باجابة منطقية تقذف أفكار الشك بعيدا عن عقله...

جاب حولها في المكان كما لو كان ضابطا يستجوب أسير في المعركة، ثم ركل باب الشقة بساقه ركلة قوية رجت المكان كالزلزال، وخرق آذان نور بصرخة غاضبة وقية صرخ بها يونس في وجهها مكررا سؤاله عليها...

- ممكن أعرف كنت فين في الوقت ده.....؟!

استنشقت نور نفسا عميقا كي تهدئ من اضطراب اعصابها في هذا الموقف وتبرر له كذبا أنها لم تكن تخونه... ثم التفتت إليه بوجه غاضب وصرخت فيه...

- انا كنت عند صحبتي... أنت هتحقق معايا...!

بانت بعض من ملامح الكذب على وجها اثناء كلامها كما قال لي يونس، الأمر الذي جعله يدرك أن زوجته كانت تخونه بداية من هذه اللحظة.

رددت اجابتها بوجه شاحب ونبرة صوت متقطعة وانفاس متسارعة بعثها قلب هالع يدق بسرعة بسبب ادرنالين فرز في جسدها بإفراط، أرادت كي تتخطى هذا الموقف مع زوجها إلى حين تخلصها منه مرة وللأبد عن طريق الخلع أو بأي وسيلة قبل أن يفش غضبه كله فيها.

- وهتروحي تعقدي مع صحبتك بلبس زي ده الساعة حداشر ونص بليل...؟

سأل يونس وهو يرمق جسد زوجته المجسم في الملابس باشمئذاذ شديد.
صرخت مرة آخيرة في وجه قبل أن تردف إلى غرفة الأطفال بمؤخرة كانت على وشك أن تنهش جانبي جيبتها الضيقة تمزيقا...

- ده مش تحقيق... عايز تصدقني مش عايزة تصدقني مش فارقة معايا... العيشة معاك بقت خرا... أنا داخلة انام...

واغلقت باب ورائها بعنف شديد تماثل مع قدار عنف يونس، بل زاد عنه قليلا كي يضفي حسا على المصدقية الكاذبة التي ادعتها...

مرت الأيام بين الزوجين على هذا النحو، وانقطعت الصلة بينهما، ظلت نور تدخل المنزل في وقت متأخر كل ليلة بمثل هذا اللبس أو ما يتفوقه جمالا بحيث تظهر فيه أكثر اغراء وانوثة، ولم تنتهي المشاكل الزوجية بينهما بسبب هذه الحادثة المتكررة التي ببرت لها كل مرة أمام يونس بهذه الكلمات: أنت شكاك وبتنغس علي عشيتش علشان باروح اعقد عند صحبتي دعاء في التجمع التالت... ايه ده يا اخي انت حاجة لا تطاق...

ولكن هل كانت نور تذهب حقا كل ليلة لتمضى وقتها مع صديقتها الوهمية دعاء في التجمع التالت؟

زادت الأحوال اضطرابا حينما لاحظ يونس زوجته تمضي ساعات امام الهاتف والحاسب، هذا الكمبيوتر رضيء النمط الذي اشتراه بالشيء فلاني وظن أنه مادة حديثة التقنية تواكب العصر الحديث في السرعة والاصدار، على عكس ماهيتة الصادقة تماما... جهاز لا يستطيع أن يفتح أكثر من برنامج في الوقت الواحد، والبرنامج الوحيد الذي كانت تفتح زوجته عليه هو الفيسبوك، البرنامج الذي وجدها تجلس عليه بالساعات تتحدث مع هذا الرجل الذي يدعي انه معه الكثير من المال، وأنه مالك سلسة شركات (...) وأسرته كلها تنتمي إلى طبقة الأغنياء وأعيان البلاد، لهم سلاسل محلات هنا وهناك تباع مشترواتهم كل يوم بالشيء الفولاني.

تنصص عليها كل يوم وأدرك لما تخونه الآن...

وبعد هذا الموقف...

طلت هذه الحادثة بمصرعها على هيئة الرجل الداخلية والخارجية، فمنذ هذا اليوم الذي تأكد فيه يونس أن زوجته تخونه مع هذا الرجل بسبب الأزمة المالية، ولأنه رجل ذو ثراء فاحش تغلب عليه بالمرتب الشهري المتزن... عشرون ألف جنيه شهريا... وبأصل في المجتمع نبيل ينتمي لعائلة عوضها الله مالا بدل من العلم والثقفاة، تتنشر بأسواقها في كل مكان، تتفاخر بأرباحها اليومية النابعة من ملايين المنتجات المنخرطة في الحياة المعيشية المصرية، بداية من المناديل إلى الساعات الذكية التي لا يسمع عنها إلا حفنة من أبناء الطبقة المتوسطة وطبقة الأغنياء.

أشعل الرجل عود كبريت بعد أن قرر أن يترك المنزل لنور وحدها بكل سزاجة، بعد أن ترك لها لافتة علقت على باب المنزل، حملت تعلقيا منه لها لن ينساه يونس أبدا وهو يكتبه: عبدة الفلوس. ومع هذا كله لم يرد أن يلقي عليها يمين الطلاق منتظرا الساعة المجهولة التي ستذهب فيها إلى القاضي طالبة منه الخلع حتى لا يشعر أن الذنب ذنبه، كما أنه خاف أن يتعجل في

قراره هذا قبل أن ينزل الله بوحي الهداية عليها قبل حلول الساعة المجهولة، فترتدع عن فعلتها الرزيلة وتفكيرها الغريب وتعود العلاقة كما كانت بينهما في المرة الأولى علاقة ود ومحبة خالية من النزاعات الدنيوية.

وإلى حين حلول احدى الساعتين... إما الأولى التي ستخلعه فيها زوجته أمام القاضي، أو الثانية التي ستظعن فيها إلى خطيئتها وتعرض عنها، قرر أن يمضي حياته اليومية في فندق لا بأس به يقيمه الناس ثلاثة نجوم، ثم يتصل بصديق عمره الذي تعرف عليه في سنة رابعة كلية كي يطرح عليه مشكلته، صديق الصبى والشباب جابر مرقس الشهير بعم جابر وجابر الشبح.

سيحكي له كل شيء على سماعة الهاتف التي رجا لو لم يشتري مثله لزوجته الخائنة في اللحظة التي رفع فيها الهاتف ونقله من جيب بنطاله الضيق إلى يده، ضرب رقم الشبح جابر على الهاتف مشمرا كم قميصه الرمادي المهندم واتصل به.

- جابر مرقص معايا...؟

اتصل يونس بصديقه جابر الذي لم يحقق اتصالا معه لفترة طويلة تتراوح بين أشهر إلى سنة...

استغرب الرجل صوت يونس للحظات قبل أن يجيب عليه، وإذا به يسبه بنبرة حشاش دائخ يذوق السجائر في يومه أكثر من الشراب والطعام الذي يأكله أكل المحروم الجائع على الرصيف، لأنه مثل احمد البواب فقير في المال وأفقر من يونس الذي يتحصل خمسة آلاف في الشهر.

- يو... يووووووونس...! انت فين يا جدع...؟!

صرخ جابر في الهاتف، ثم تنفس انفاسا سريعة قاطع بها يونس قبل أن يجيب على سؤاله.

- ووووحشني يا رااجل. أنت عامل ايه...؟! آخر مرة كلمتني فيها يا كلب السكك كان من خمس تشهر...

أراد يونس أن يقتضب حوار زوجته معه سردا... ولكن جابر قاطعه مرة آخرى بدخلة عزومة المركبية التي اعتدا أن يدخل بها كل حوارته من أحد أبناء عائلته.

- طب ورحمة امي انا كنت هكلمك انهردا علشان اعزمك على خطوبة قريبي ونعقد ناكل فيه سوى... دول هيجيبوا فراخ مشو-

صرخ يونس في الهاتف بنبرة قاسية وهو يعض شفاهه كالمجنون دون عمد بسبب شدة الاضطراب العصبي الي سيطر عليه...

- جاااابر اسمعني....! أنا عندي مشكلة دلوقتي وعايز اكلمك فيها...!

استحدث جابر الحوار مع يونس بطريقة طبيبي نفسي مخضرم عالم بحال مريضه، ولم يغير نبرة صوته المستقيمة التي تحدث بها مع يونس إلى نبرة الصوت الحزينة التي تحدث بها سائر البشر معه اشفاقا منهم عليه كل مرة وصف لهم حياته القاسية بطريقة زاخرة بالدراما، وتحدث بكل برود على الهاتف مع يونس كما لو كان معتاد على هذا النوع من المكالمات لفترة طويلة...

- في ايه يا يونس...؟ احكيلي...

تمتم يونس كلمات ليست مفهومة ولم يستطع أن يجيب على السؤال على الهاتف...

معن العم جابر هذه الكلمات بآذانه وأدرك أن مشكلة يونس هذه المرة ليست مشكلة عادية، بل مشكلة كبيرة تطلب جلسة عرب على قهوة الشبح...

- طب بص يا يونس... احنا لازم نتقابل ونتكلم... مش هينفع هنا على التليفون...

رد يونس عليه بسرعة...

- نتقابل فين...؟

- مكاااااانا العادي...

أقر جابر بمزمار كبير في فمه، ورسم في خلفية رأسه البيضاء قهوة عتيقة دهنت بالون البني بطابع فني رائع جوار شارع كبير فيه كنيسة تشققت أعمدتها الطويلة بسبب طول عهدها منذ ايام الملك. سماها جابر قهوة الشبح لأن أصدقائه كانوا يجلسون عليها منذ أيام الكلية بصحبته، وحاليا منهم من لا يزال يتقابل معه هناك ومنهم من صاروا طاقهم عمل بها مخضرمون بأحوالها بعد أن خذلتهم شهادتهم، ولطالما كان جابر معروف بينهم باسم الشبح منذ ايام جامعة القاهرة، لأنه في مخيلتهم شبح يحل كل المشاكل – أي مشكلة مهما كانت معقدة – ويتغلب على مهاولها بخطوات بسيطة ومحكمة، وسرعة شديدة لا يشعر بها أحد اهلت رفاقه باطلاق لقب الشبح عليه.

- قهوة الشبح...؟

رد يونس على جابر متسائلا برتم سريع.

- اه... قهوة الشبح...

أقر جابر بنبرة متضاخمة توحي بالتفاخر والكبرياء كونه شبح هذه القهوة وفتوة المنطقة.

- الساعة...؟

- تعالى حداشر ونص بليل يا يونس... حداشر ونص بليل...

سمع يونس الساعة التي سيتقابل فيها مع الرجل، ورأى لوهلة صورة جنسية لزوجته، تنام خلالها مع رجل آخر خالي الملامح على سرير كبير من الدماء، احاطته الخادمات اللواتي أمطرت بالأموال على الزوجين ونور تأخذ

هذا المال، تضمه بين صدرها الضيق وتلعقه بين شفتاها كما لو كانت مصاصة أموال تتعطش لتذوق طعم المال ورائحته.

أغلق يونس الخط على صديقه بسرعة بعد أن انتهى من تخيل هذا المشهد الوهمي المقزز... واتجه سريعا إلى الحمام يضم ذراعيه إلى بطنه...

عقب جابر على اللقطة التي أغلق فيها يونس المكالمة بسرعة في وجهه في الثانية التي أطلعه فيها عن ميعاد المقابلة...

- ده ماله ده...؟ اول مرة اشوفه كده...

عض يونس على شفاهه بعد المكالمة غضبا، وراوضته بعض من الصور الجنسية القبيحة ويتخذ الخطوات المتبائطة نحو فراشه القذر، الذي لم يرتبه لمدة يومين كي يضجع فيه، منتظرا حلول الليل، ناظرا في وجه صديقه الذي توهمه أمامه ببشرته السمراء القمحية، وخدوده النحيفة التي ترسم أعلاها عيون ضيقة غلفتها رموش ثقيلة شديدة السواد...

- ياترى بقى يا عم جابر هتحل مشكلتني ديه بقى ازاي انهردا...

سأل صديقه الذي توهمه امامه للحظات قبل أن يدس رأسه في المخدة، ويصرخ صرخة انتقام ومقط قوية، انتزعت الطاقة كلها من بذور جسده فيفقد الوعي كاملا بعد هذه الصرخة...

- انا بكرهك يا نور... ياريتني ما عرفت شكلك القذر...! اعاااااااااااااااا...

وشرد إلى النوم بدموع سالت على الخدين، دمستها عيونه السوداء في جفون عيونه الملتهبة حزنا.

الساعة التاسعة والنصف مساء...

ضرب يونس لحاف السرير بكل قسوة بعد أن دبت الروح في جسده...

لم يفق في وهن وتثائب ككل مرة، بل أفاق من على السرير كوحش غاضب ظافر بالجوع وبالطاقة الجنسية التي لم يأبه لها، وبرغبة شديدة في الانتقام من زوجته بأي طريقة.

تخلص من كل هذه الأفكار والتفكيرات الشريرة المكبوتة، ثم دلف من غرفة النوم إلى حمام الفندق الصغير الذي تتمع ببانيو صغير سيستحم فيه، وفي مرحاض سيتبول فيه، وحوض صغير سيتغرغر فيه كي يتخلص من رائحة فمه القذرة.

تجرد بجسده من ملابسه الداخلية النتنة بكل شراسة، وقفظ في البانيو وهو ينظر إلى ثيابه المنزوعة التي كادت تتمزق بين يديه لوهلة قبل أن يفتح ماء الدش الساخن.

فتح الماء، وكان حريصا على أن يكون شديد السخونة بأعلى درجة حرارة في يمكن للسخان ان يصل لها، فيطير من جسده أبخرة تنزع غلاف من الغضب أحاط جسد الرجل...

مضت ربع ساعة تجرد فيها بجزء من طاقته الداخلية المكبوتة، طاقة الغضب والرغبة في الانتقام، ووثب بعدها بسرعة ليرتدي ثيابه التقليدية... بنطال جينس أزرق وضيق وقميض لونه أزرق غامق يتماشى مع لون البنطال الزرقاوي.

حلق بعدها نهو قهوة الشبح وهو يلعن نور والرجل ذو المال الذي نظرت إليه بسبب ماله، والظروف التي ربطته معها تحت سقف بيت واحد قبل أن تخونه.

مضت دقائق، نزل بعدها يونس من على متن مواصلة من المواصلات العامة قاذفا جنيهين ونصف في وجه السائق الذي سبه بعد هذه الحادثة وأراد لو أن يدهسه بميكروباسه الكبير.

ضرب يونس عينه بعدها إلى يمين ويسار الشارعس الذي نزل فيه، ووجد جابر مرقص قابعا في انتظاره برقفة عصى عكاز كبيرة كفكف رأسها المنحوتة على شكل قرد بكفيه السمراوين، وسار بها أينما ذهب في أي مكان بالرغم من شبابه في عمر الثلاثنيات عدم حوزته أي مرض مزمنا يبرهن له وجود العصى، والسبب في هذه العصى تمنظرا منه بها أمام كل انسان في منطقة قهوة الشبح، حيث أن الجميع في المنطقة يدركون الزعيم والفتوة من ملمح واحد بارز، هذه العصى.

ظن جابر أن يونس سيهلع إليه بسرعة كما يفعل كل مرة، كطفل افتقد امه ولم يراها لنصف قرن من الزمان، ولكن يونس لم يهلع بالخطوات كما توقع عم جابر الذي أتخذ خطواته المتباطئة نحو يونس وهو على أتم اليقين أن مشكلة عظيمة طرقت حياة صديقه العزيز وقلبتها رأس على عقب.

وصل جابر إلى يونس الذي لاذ بالصمت والشرود مكانه بأنفاس متسارعة وقلب يدق بسرعة قوية يكاد ينفجر بسببها في غشائه المحيط داخل الجسد الوهن...

- مالك يعم يونس... مش عوايدك يعني... أنت مش كل مرة بتيجي تجري علي وتاخدني بالحضن... اشمعنى المرادي...؟

سأل جابر وهو يرتسم ابتسامة خفيفة نبعت بمصديقة من أعماق قلبه.

لم يرد يونس عليه ولم يرغب بالرد أبدا وحالهم واقفون على الأرجل، لاذ بالصمت وتأقلم مع فلسفته الجديدة التي حثته على كتمان صوته والتحدث بندرة بعد سلسلة الأحداث المروعة بينه وبين زوجته، لأنه ظن أنه ما من

سبب أن يتفوه لأجله بأي كلمة دون معنى إن لم يتفوه بها مع الشخص الذي كان يحبه لغاية الجنون حبا يفوق المسافة بين السماوات والأرض.

- لا وكمان ساكت خالص... مش رغاي زي كل مرة يعني... ده شكلها مصيبة بجد...

حرك يونس رأسه في الهواء وطقطق اصابعه، ثم شاور على القهوة في إلى جابر. استدل جابر أن يونس يتعجله باقتضاب كي يجلسا على القهوة سويا ويتحوارا معا بخصوص مشكلة يونس ويحاولا ايجاد حل لها على طريقة العم جابر المثالية.

- حيلك يا عم هدي نفسك حاضر... هنروح اهوه على القهوة... تعالى ورايا...

ومسح جابر بعدها على شعره الصغير الذي كساه بقبعة بنفسيجة كبيرة تبدو كالباريه العسكري.

أسرع يونس ورائه بخطوات فريسة تحاول أن تنجو من المفترس.. زوجته الخائنة ومشكلتها العظيمة.

وصل يونس وجابر إلى مدخل القهوة، ضرب جابر بعصاه على الأرض بكل قوة معلنا دخوله القهوة من بابها الزجاجي، قهوة كبيرة في منتصف الشارع، على يسارها جنينة خضراء كبيرة تنمو منها الأشجار التي يجلس تحتها الأطفال، وعلى يمينها حارة ضيقة يركن بعض أصحاب السيارات الغنية عرباتهم الضخمة هناك، وأما يقف رجل يرتدي طاقية صعيدي بيضاء، نلقبه بمعرفة العم جابر، يسترزق في هذه الزاوية بعربة الفول المسكينة خاصة التي لا يقف عليها اكثر من اثنين كل نصف ساعة بسبب

جوعهم الشديد وضغط معدتهم عليهم، لا حبا منهم لأكل فول هذا الرجل الملوث.

جلس الصديقان على طاولة كبيرة من الخشب اصطفت حولها الكراسي على شكل بيضاوي، جاء بأمر من الزعيم الشبح جابر رجل نزع الكراسي من امكانها حول الطاولة ووزعها على طاولات آخرى لم يوجد حولها كراسي. حمل يونس كرسيه وجلس أمام جابر ناظرا إليه بعين قاسية تحمل في ذروتها معنى الآلم الحقيقي وجزئا كبيرا من التعاسة التي تغلبت على الرجل.

طقطق جابر باصبعيه إلى الصبي الخادم في القهوة، وقال له قبل أن يتبادل نفس النظرة القاسية مع أعين يوسف الجاحظة...

- العادي بتاعنا... وكله على حسابي...

طقطق جابر على الطاولة، ارتاخ بظهره على ظهر الكرسي المريح وبدأ يتحدث يستفسر من يونس سبب احزانه العميقة...

- خير... قولي بقك يا شقيقي... ايه اللي مزعلك...

كان يونس على وشك أن يدخل في الموضوع مباشرة لولا أن شاب من الطاولة المجاورة لمح جابر وداعبه مادحا بابتسامات مبتذلة، الأمر الذي عطل يونس ثوان عن الدخول في الموضوع اقتضابا والنفخ في وجه جابر كأرملة لا تطيق زوجها الجديد...

- عم جاااابر....! ربنا يلطف بخاطرك...! انت بتحل مشاكل الناس...! انت شبح فعلا....! أشوف فيك كل سعادة يا رب...! بدعو باسم الصليب انك تشوف كل خير يا رب.....!

رفع جابر كفه رادا الرجل المادح مكانه على الطاولة، ناظرا إلي كفه وهو يرفعه هوائا مرة آخرى تجاه يونس بعد أن لمح زبون الطاولة ينفخ بازدجار...

- ربنا يخليك يا يوسف بس مش وقتك دلوقتي...

ثم التفت إلى يونس وسأله مرة آخرى...

- قولي بقى ايه المشكلة...

حرك يونس شفاهه وعضها دون قصد حينما تأهب ليتحدث عن مشكلته... وفي لحظة لم يرقبها أحد...

- عم جاااابر....! أنا مش عارف اقلك ايه....!

صرخ رجل آخر من الطاولة خلف طاولة يونس وجابر، وأخذ يصيح باسم جابر كالمجنون في القهوة.

ضرب يونس رجل الطاولة وهو ينفخ نفخة قوية كادت تقتلع الطاولة المثنية من مكانها...

امتص جابر غضب الرجل، همس فيه قائلا...

- مش هتحصل تاني...

ثم انتصب مكانه كسن سيف طويل... وصاح عاليا وهو يلف اصابعه حول رقبته...

- جره ايه يا ولاد قهوة حزينة... يعني ملاقتوش غير الوقت اللي عاقد فيه مع صاحبي وشقيق عمري وكله نازل علي عم جابر...؟! طب ورحمة امي لو حد لفظ اسمي تاني انهردا ما هيتعب عقب بيته الليلة... قد أحظر من أنظر...

وضرب بمؤخرته القوية مقعدة الكرسي، ثم حول نفر سيجارة كبيرة من جيب ردائه الأبيض إلى فمه ذو الشفاه المتشققة، واشعلها بولاعة جلبها إليه رجل شاب من العاملين في القهوة طقطق له اصابعه...

انصرف الشاب بعد أن أضاء شعلة في سيجارة عم جابر، هامسا إليه بوجه مشفقا لأنه شعر بالأسف لأن الزبائن آراكوا مزاج أشهر زبون في القهوة.

- متأسفين يعم جابر...

- ولا يهمك ياحبيبي...

أنتقل جابر بعدها بنظرة ثاقبة وهو ينفخ نفسا قوية من سيجاراته الضخمة التي وصل حجمها إلى حجم صابع من اصابعه...

- قولي بقى يا حبيبي... ايه... سبب... احزانك...؟

نظر يونس إلى عم جابر نظرة مضطربة، رفض أن يجيب على السؤال متوقعا فسل آخر سيصيح عند بداية الحوار ويقطع النمط الفكري الذي سيتبعه يونس في ذهنه كي يعرض مشكلته بدقة لصديقه العزيز الجابر.

تحدث يونس بعد أن طمأنه جابر أنه ما من احد سيناشده باسمه مرة آخرى عند بداية الحوار ويقطع عليه حبل افكاره... وبدأ يونس المحاورة مع صديقه باقتضاب شديد، هامسا في آذانه...

- مراتي بتخوني علشان الفلوس يعم جابر...

جحظ الرجل بعينيه ورسم وجها مرتبك نقشته الصدمة في لوحة القهوة...

طقطق وهو يسأل يونس مستفسرا...

- بتخونك علشان الفلوس...؟ انت مش بتديها فلوس أو مرتب يا يونس...؟

هز يونس رأسه في حزن شديد، ثم نظر إلى الأرض وهو يريح جبين رأسه على الطاولة لبضع ثوان، قائلا في خيبة أمل شديدة...

- يا ريت المشكلة كانت زي ما انت فاكر كده يعم جابر... ده أنت طلعت غلبان قوي... قوي قوي...

- هوهوهوهاها...

ضحك جابر ببرود شديد بعد أن تنفس نفسا قويا من سيجارته الكبيرة نافخا الهواء في وجه صديقه مهملا بتعنت الأمراض الخبيثة التي ستصيب رئه صديقه كل مرة ينفخ فيها سيجارته في وجهه.

نظر يونس إليه باشمئذاذ... وتسآل عن سبب هذه الضحكة المتبلدة التي خرج بها عم جابر إلى يونس اثناء حواره معه دون مراعة مشاعره...

- ايه اللي يضحك...؟

حزق جابر مكانه وجحظ بعيونه وهو يرتشف نفسا قويا من السيجارة... ثم قال ليونس بعد أن أرتشف نفسين آخرين...

- اللي يضحك أنك بتقول علي غلبان وأنت اللي غلبان في واقع الأمر. ماهو لو كنت بتديها مرتب تحوشه أو تعمل أي حاجة ماكنتش هتبص لواحد تاني معاه فلوس أكتر منك... صح ولا غلط...؟

نظر يونس إلى يمينه، ثم أطال النظر في وجه جابر الشبح نظرة هول وتعجب... ذهل لأن جابر الشبح خمن المشكلة قبل أن يلمح يونس إليها أو يتحدث عنها...

أراد يونس أن يبرر شيئا أو شيئين إلى جابر الشبح، أو يرجح عليه أن يفكر معه في حل للتخلص من هذه المشكلة ومحاولة بطر العلاقة بينها وبين هذا الرجل الذي تعرفت عليه ووقعت في الغرام مع أمواله... ولكن العم جابر ختم الحوار قائلا...

- مشكلتك ديه ملهاش حل يا يونس... الغلط مش غلطتك بعد الجواز على فكرة... لا غلطتك علشان ماسبتلهاش فلوس نقدية ليها، كان ممكن تكسر بيها

عينها وتحسسها انها غنية لو حوشتها... ولا انت السبب اللي خلاها تدور على واحد غيرك يعوضها نقص الفلوس اللي مش عندك... المشكلة كانت مشكلتك من الأول يا يونس قبل ما تتجوزوا...

ضرب يونس على الطاولة وسأل صديقه في ثورة عارمة...

- مشكلتي من الأول...؟

رد عليه جابر في حوار بزخ فيه بالكلمات الصادقة التي فطرت قلب يونس وجعلته يلوم نفسه بقسوة في القهوة...

- المشكلة مشكلتك من الأول قبل الجواز... أنت اللي كنت غلط هنا مش هي يا يونس... عارف ليه...؟ أنت اللي كنت عارف أنها كلبة فلوس وكنت بتضحك على نفسك وتقنعها انها غير كده، وفي اليوم اللي ما تهياتلها الظروف أنها تحقق حلمها وتتعرف على راجل معاه فلوس كتير، حتى وهي متجوزة أكيد عمرها ما هتسيب فرصة اليوم ده تضيع منها...

رد يونس عليه فورا...

- بس هي متجوزة...! الدين مابيقولش كده...!

قهقه جابر وهو يأخذ نفسا طويلا من سيجاراته التي لا تنتهي... ثم قال...

- الناس اللي زي ديه مش عارفين يعني ايه دين قبل الجواز... هيجيوا يعرفوا يعني ايه الدين بعد الجواز...؟

شرد يونس إلى أحزانه مرة آخرى... ورمقه جابر بنظرة خبيثة وهو يرسم على وجهه ابتسامة خفيفة لم تدم ثوان.

- سيبك أنت... أنا عندي تلت حلول لمشكلتك...

- أتفضل...

قال يونس وهو يعير انتباهه لصديقه العزيز، آملا أن يسمع منه حلا يستقصي الاهوال بينه وبين زوجته، يجعل الأمور تعود كما كانت قبل أن تتعرف على هذا الرجل الغني...

- الحل الاول... تنساها وتشوف واحدة بدلها...

صدم يونس حينما سمع هذا الحل.

- الحل التاني... تطلقها وتعيش لوحدك فترة لحد ما نفسيتك تهدى وترتاح... وبعديها يا تشوف واحدة تانية غيرها أحسن منها، يا تعيش لواحدك من غير ازعاجك... ويابختك يعم... عندكم تعرفوا تطلقوا براحتكم عكس عندنا وترجع تعيش حياتك لوحدك من غير خرا، كما ولدتك امك...

ضرب يونس كفه بالكف الآخر، وثابر استماعه بحديث الشبح جابر حلال المشاكل...

- عندنا لو رشقت في واحدة انت معاها لحد لما تموت... مهما ان كانت مين وايه... حتى وان كانت أسوأ واحدة في الدنيا... فنصيحتي سيبك منها وطلقها بما أنك عندك الفرصة ديه...

صدم يونس مرة آخرى حينما سمع هذا الحل، بل وقلت آماله في أن يتلقى حلا ينهي هذه الصراعات الناشبة بينه وبين زوجته وجعلها تكف عن خيانته...

- الحل التالت... ده بقى أوسخ حل وماقدامكش غيره لو مش هتقدر على اللي فاتوا... تاخد حاجة تنسيك اللي انت فيه لحد ما الموضوع يخلص لوحده... وده بسميه حل تخدير ميت...

ناوله سيجارة كبيرة من داخل جيوب سترته تردد يونس في اخذها.

- الموضوع يخلص لوحده...؟

- يخلص... اه... ما انت عارف... ماتشغل دماغك شوية...

وأشعل السيجارة كبيرة ليونس بولاعة جائت بين يديه من عامل بالقهوة رهن اشارته.

- أجدد صنف في السوء من ايد المعلم نوح... خده لمدة شهر وابقى قابلني لو افتكرت انت مين.

أطال يونس النظر في سيجارة العم جابر... وردد اسم نوح مرتين وهو يمتد له بأصابعه المرتجفة.

# الباب الثالث

# العالم الآخر...

في العالم الآخر... بعيدا عن عالم الادمان الذي انغرق فيه يونس بسبب صديقه جابر الشبح، الذي رجح عليه حلولا للطريق موت... الادمان بعد طلاق زوجته نور.

- شايف البقالة اللي هناك ديه...

يقول رجل يحتمى من ضوء الشمس الحارق في جلبابه الأبيض الكبير.

يشير إليه رجل وقف جواره على مسافة كبيرة، يبدو كما لو كان صديقه، يتأمل البقالة التي غطت على الشارع ببنائها الضخم ومنتجاتها الطبيعية المثيرة التي نزلت في السوق التجاري صيف هذا العام، مرفوع على كل منتج من منتجاتها ورقة كبيرة على خشبة صغيرة تعرض اسعار كل منتج، وورقة أكبر من كل هذا الورق منقوش عليها كلمات: بقالة العم ايوب.

- مالها...؟

يتجاوب الرجل مع صديقه الصعيدي برد فعل سريع.

- بيقولوا البقالة ديه مش مظبوطة...

سعى الرجل الصعيدي ذو الجلباب الأبيض قائلا بسرعة.

- مش مظبوطة...؟ هيه...؟

يتهامس صديقه معه متسائلا في عجب شديد ظهر على وجهه.

استغل الصعيدي ذو الجلباب الأبيض سزاجة صديقه وجهله بالأساطير الممقوطة التي دارت حول باقلة العم أيوب منذ فجر التاريخ...

- بيقولوا البقالة ديه اسمها بقالة الموت يا حج حسن... بس ماحدش عارف يثبت الكلام ده...

- بقاله الموت...؟ هاه... شكلك عامل دماغ وبتصتبح عليا... فين بقالة الموت ديه يا جربوع الترعة...؟

رد الحج حسن عليه بسخرية شديدة من أمره، متذكرا حاله حينما ذهب واشترى أغراض كثيرة من هذه البقالة على يد العم أيوب الGentleman الذي لا يستطيع أحد أن يصفه بغير هذا، وعلى يد شبابه اللطاف اللذين يجتذبون الزبائن إليهم بمظارهم الحسنة وأخلاقهم الرفيعة في التعامل مع الزبون.

- ده ده اللي باينلك يا حج حسن... علشان انت مش شايف وش البقالة الحقيقي...

قال الفلاح الصعيدي وهو يدرس ملامح العم أيوب الذي خرج ووقف أمام بقالته لبرهة قصيرة، رجل صعيدي يبدو كما لو كان في الخمسين من عمره، يرتدي عمامة بيضاء ويلف حول كاهلية قماشة عتيقة لونها أحمر تتخللها خطوط عريضة بيضاء تليق مع شاربه الأبيض القصير وجلبابه الرمادي الطويل.

- غور يلا من هنا بدل ما أقول لسديك الفلاح علي يجازيك يومين...

صرخ الفلاح حسن لصديقه الذي شك في البقالة وصدق التخاريف التي قيلت عنها من بعض أعداء العم أيوب، أدعوا انهم كانوا عمال عنده في البقالة تركوها بعد أن أدركوا أعمل الحج أيوب السرية، ولكن لطالما أنكر العم أيوب هذه التخاريف واثبت مصدقيته مرة واثتنين وثلاثة وربعمائة أمام الشرطة والجماهيير والذبائن بالعقل والمنطق، مخونا أي أحد يمقط بقالته ذات "الشغل المظبوط على ورقة بيضة مية المية" كما يصفها في كل احاوريه.

انتصبت الشمس فوق الرئوس مع حلول الساعة الثانية ظهرا، ووقف أمام بقاله العم أيوب رجل يبدو من ردائه أنه ليس بريفي مائة المائة ولا بأهل من أهل المدن مئتان بالمئة، بل يبدو كما لو كان أصله مزيج بينهما.

أرتدي هذا الرجل نعل ريفي بني الهيئة على بنطال جينس عريض فوقهم قميض أحمر. ملامح وجهه خليط بين رجل مرفف من الطبقات الغنية وحشاش سرسجي عمله الرئيسي ترويج المخضرات بكافة أنواعها إلى تجارها وطالبيها. على خديه الكبيرين المدللين خرزتين عريضين بخط طويل يمتد إلى آخر الحاجب، وعلى شفاهه بقعة بيضاء كبيرة.

دخل هذا الرجل على شاب من الشباب الذين يعملون بالبقاله، هامسا إليه قبل أن يعرض عليه بضاعته...

- العم أيوب موجود...؟

نظر الشاب العامل بالبقالة نظرة خبيثة إلى هذا الرجل غريب الأطور، غريب الحس الفني في اختيار الملابس، وسأله وهو يغمس له بعين دامية تقول أن صاحب هذا السؤال لن يفر من المكان حيا إلا إذا كان معرفة من معارف العم أيوب...

- اقوله مين...؟

سأل الشاب وهم يضم يديه إلى فخذيه بانضباط كعسكري المرور، ليست علامة طاعة ولكن ربما علامة سرية يتواصل بها أتباع العم أيوب بين بعضهم البعض.

نفخ الرجل غريب الأطور في وجه الشاب بقوة كي يثبت وجوده وثقته الشديدة بنفسه، وهمس في آذان الشاب بنفس ملأته ذرات الحشيش والهروين والمحضرات رائحة كريهة...

- قوله المعلم نوح مستنيك...

رد الشاب بتمنر بعد أن حرك عينه في اتجهات عديدة، كما لو كان يمحص لائحة اسامي معارف العم أيوب في عقله...

- ماعنداش حد بالاسم ده... سمي على روحك يروح امك...

وسعى الشاب بمطوته إلى قلب نوح بعد أن أدرك متأكدا أن نوح ليس في لائحة معارف العم أيوب كي يندہ بلقب الفلانتينو.

ولكن نوح تفاعل مع هذا الموقف بسرعة وأخرج مطوته قبله، وحفر ثقبا كبيرا في وجهه حينما وقفت أمام البقالة عربة حمار كبيرة يقودها عربجي اغلقت على مشهد الجريمة، صارخا بكل قوة في مجموعة آخرى من الشباب انتبهت إلى صديقهم الشاب الذي غرق في بركة من الدماء أسفل نعل نوح الريفي...

- مش هكرر سؤالي تاني...! المعلم أيوب موجود...؟!

خشى الجميع أن يتعضروا إلى نفس المصير المروع، واجابوا جميعهم في صوت واحد، قائلين...

- ايوا موجود... بس هو مش في البقالة دلوقتي...؟

- قدامه قد ايه...؟!

صرخ نوح وهو يموج مطوته كما يموج الحيوان البري مخالبه في الهواء.

- تلت ساعة ويجي قدام البقالة حالا...

تلقى نوح الاجابة من الشباب واستهل طليعتها عليه بنفس واسع ووجه متبسم قائلا...

- خلاص مظبوط... مش ماشي من هنا من غير لما اقابله...

ثم شاور على الرجل الذي غرق في دمه أسفله بسبب الثقب الكبير المذي على وجهه...

- خدم عم الدكر اللي شايف نفسه على الناس اللي مش قده من هنا...

وأخيرا وليس آخرا لوح للرجل العرجبي الذي غطى على البقالة بالمطومة، واعدا له بمكافأة حسنة بعد مقابلته مع العم أيوب...

- خلاص انصرف يا لورد وحسابك معايا بعدين...

وشم كفه شمة شمام مخضرم حياته كلها البودرة والدخان.

- هجازيك حسن بعديا علشان رجولتك معايا...

وانصرف العربجي من امام البقالة بحماره، راسما على وجه ثغر أنثى وعدها زوجا بنصف مرتبه آخر الشهر.

وانتظر نوح نصف الساعة حتى وصول المعلم نوح...

يدخل المعلم نوح بقالته كالسلطان الذي يدخل قصره، يسير على سجاد طويل افترش من أقاسي الشرق إلى الغرب، يهابه الجميع وهم ينلقون له نظرات هيبة ووقار صادقة، إلا نوح الذي لم يفعل هذا واستمر بمعاكسته مع فتاة حسناء وجميلة تعمل بالبقالة، قطعت أنفاسها حينما دخل العلم أيوب بقالته.

صرخ أيوب إلى نوح صرخ قوية توحي بمدى غضبه لأن هذا الرجل الغريب الذي جاء إلى البقالة وأصاب طاقم من عمالها ببرود شدي، يأتي بنفسه المتكبرة الآن ولا يبدى احتراما إلى سيد المكان...

- الاول تيجي بقالتي تشوه وش واحد من عندي وقلت ماشي... انما تيجي مملكتي وماتدنيش سجدة احترامي...؟

أدعى نوح أنه لم يسمع صرخته، والتفت إليه بعد أن عابر نظرة سيئة إلى الفتاة، مترخيا بكهالية على الطاولة الخشب التي جلس عليها بكرسي صغير رممه من صبي البقالة الذي جلس جوار المحاسب.

- ايه ده... ده المعلم أيوب بقى جي يشوف نفسو علينا بعد عمر طويل... مشرفنا يا سي ايوب... خير عايزني ليه...؟

نظر أيوب الشهير إلى نوح نظرة اشمئذاذ، ثم نظر إلى طاقم عمله كله نظرة غاضبة، أمرهم جميعا أن يعودوا إلى أعمالهم بعد أن سأل نوح سؤاله بنبرة كلها فخر وكبر، مدركا ماهية الرجل الذي أزعج العمل في اجزخانته من نبرة صوته التي تبدو ككلب بلدي يعوي...

- هو أنت...؟

ضرب نوح على صدره بكل فخر، ثم قال وهو يبسق بلغما على الأرض...

- آه هو انا...

رفع أيوب اصبعه، مشاورا على نوح بوجه متنمر كما لو كان نوحا نكرة أو مسخة... وسأل على نحو يوحي مدى تقظظه من وجه نوح الأبيض المتعرق...

- هو انا مش قلتلك مقابلتنا على القهوة الليلة...؟

وتلقى همسا من احدى حسناواته اللوات بلغنه بأفعال الشاب نوح، ثم صاح فيه ساخرا...

- كان لازم الضجة ديه كلها وتيجي تزعجنا انهردا علشان المقابلة...؟

ضرب نوح كفيه بقسوة، طقطق اصابعه وضرب على الطاولة باصبعيه، ثم قال وهو يتخيل في ذهنه جنينة خضراء تذبل وتموت، فيموت صاحبها معها من شدة الحسرة...

- فاكر شقيق عمري زمرد يا معلم ايوب...؟ حبيت بس اجي اعملك دوشة علشان افكرك اني لما هشتغل معاك تاني مش هخلي حاجة زي ديه تحصل، لانها لو حصلت هيكون قبرك على ايدي قبل ما احيا من الموت وادفن تاني...

نظر الجميع إلى نوح باشمئذاذ، وانفعل عليه جميعا شبابا واناث في القالة...

- أنت بتهدد العم أيوب...؟

أخفض أيوب صحوات الشباب بكف ممتد في الهواء، وقال لشبابه وهو يبلع ريقه بصعوبة...

- خلاص يا رجالة... ماعش اللي يهدنني... مش محتاج حد يقوفله طول ما انا واقف لوحدي على رجلي زي الجبل...

ابتسم نوح ابتسامة خبيثة لأيوب تهبط من حدة كلماته وتقلل من حاله... ثم قال ساخرا وهو يحملق في الفتاة الحسناء التي جلست على الطاولة أمامه...

- واقف على رجلك لوحدك يا معلم أيوب برده...؟

ثم تحسس اصابعها كما لو كان خطيبها، ونهض من على الطاولة وهو يقود الطريق...

- يلا على قهوة الشبح يعم أيوب...

جز أيوب على اسنانه قبل أن ينصرف من وسط شبابه الذي تحامى فيهم... ثم قال وهو يضرب الأرض بحزائه العتيق الممتلئ بالخرق...

- مستنيك على القهوة يا معلم نوح...

- ايوة... على القهوة يا أيوب نكمل اتفقنا...

قال نوح وهو يحك فروة رأسه الصغيرة، وانصرف خلال الضباب وأشعة الشمس المتجانسة من أمام عيون العم أيوب الذي طقطق بكفيه مسنكرا...

- الايام ديه اللي بتطلب منه حاجة بيجي يكلمك ببجاحة زي ما يكون بينك وبينه تاريخ سابق قبل كده... فعلا حاجة تحزن... فعلا حاجة تحزن...

ومال شاب من شبابه عليه بوجه حزين ومتعاطف قبل أن ينخرط العم أيوب في أمور بقالته مرة آخرى إلى حين حلول الليل واندماج السماء في سواد شديد...

- ولا تزعل نفسك يعم أيوب... ولا تزعل نفسك... هم شباب الأيام ديه بقم كده...

حلت الساعة العاشرة مساء...

على قهوة الشبح التي تجالس عليها يونس مع صديقه جابر قبع العم أيوب منتظرا نوح بنبض قلب خافق واعصاب مضطربة...

مرت الثوان على عم أيوب كما لو كانت أعواما، ووارده شيطانه أن نوح لن يتقابل معه، وإن حدث وتقابل سيكون برفقة رجلين من رجال الشرطة يجروه إلى القسم كي يخلد في حزينا حتى تحل ساعة موته.

وصل نوح القهوة وحده... ودخل القهوة دخل بلطجي مخضرم وسفاح مجيد، رمقته العيون بكل خوف مع كل خطوة خطاها بنعله الصعيدي نحو طاولة العم أيوب.

ارتاح العم أيوب حينما سحب نوح كرسيا بنفسه، وجلس به وحده أمامه بهيبة عفريت من عفاريت الظلام لم يستطع أي دجال أن يصرفه أبدا.

- مس الخير يعم أيوب...

- مساء الخير يا نوح...

رد العم أيوب السلام وهو يشير إلى الخادم بابهامه، ففهم الخادم من الابهام أن العم أيوب يريد أن تنزل على الطاولة شيشة كبيرة بحوزة أكواب كبيرة من القهوة والشهاي.

- عايزني ليه بقى...؟

سأل نوح وهو يرصه كفيه على الطاولة.

ثم رد هامسا بعد أن درس النار المشتعلة في عيون العم أيوب...

- رجعت خلاص لوسختك وعايز ترجعني معاك...؟

لف العم أيوب عيونه لفة شمام يستمتع بشم البودرا، ثم التفت إلى نوح وهدده بطريقة الكونكان الخبيثة بالغة الاحترام.

- انا لوحدي اقع لاء... انا وانت نقع آه...

تفهم نوح أن العم أيوب يهدده بماضيه السابق حينما عملا سيا في القتل وتجارة المخضرات وتجارة الأعضاء والكثير من الأشياء التي لو شمت رائحتها الداخلية، لانهارت مملكة العالم الآخر التي أنشأها الكونكان بمعاونة العم أيوب ونوح وامثالهم.

أراد نوح لو أن يصرخ في وجه العم أيوب بسبب هذا التهديد، ويصيح إليه أنه لا يملك سلطان عليه، ولكنه تملك نفسه وقرر أن يهدده بنفس النمط المهذب.

- متنساش يعم أيوب اني مبطل بقالي سنتين...؟ فكونك تقابلني علشان تخليني أرجع قتال قتلة تاني ديه مش بساهل... ومش بعد ما مات زمرد على ايدك...

ورأي مصير زمرد الحزين في عينيه اثناء عملية من العمليات دبرها العم أيوب مع نوح، راح زمرد ضحية من ضحايها حينما تلاعب خصم العم أيوب برجاله، منهم نوح، وصنع خطة خبيثة أدت إلى موت نسبة كبيرة من الرجال في ميعاد تسليم حقيبة المخدرات، منهم صديق من أعز أصداق نوح الملقب بشفرة سرية اسمها زمرد.

غير العم أيوب الصيغة التي تحدث بها مع نوح، وقرر أن يقحمه في العودة إلى الماضي التعيس بطريقة آخرى...

- فاكر الكونكان يا نوح...؟

سأل العم أيوب وهو يفرش ظهره على زاويته المريحة من الكرسي، صاح بعدها لطاقهم القهوة...

- الشاي والقهوة والشيشة فين يا افندينا...!

- جي اهوه في خمسة..!

صرخ افندينا حينما هرش نوح سباباته بسبب خراج صغير تبوئ من ظروف اصابعه الربطة عاصمة جديدة لخلاياه الميكروبية.

- الكونكان لسة عايش...؟

سأل نوح.

رد عليه المعلم أيوب بوجه متبسم كوجه رجل تزاوج مع حب عمره الليلة، وقال كلماته بنفس يميل نحو البطئ والهدوء حتى انتهاء العبارات...

- الكونكان لسة عايش... بس مش الكونكان اللي انت عارفة...

استنبط نوح أن الكونكان القديم مات وحل محله رجل آخر.

- مين بقى الكونكان الجديد...؟

هز المعلم أيوب رأسه مستنكرا، ثم قال بنبرة يافعة بالشباب، تصحيحا لمفهوم نوح الخاطئ...

- يو ميس اندرستود مي... الكونكان هو هو نفس الراجل اللي اشتغلنا معاه من زمان... قصدي من كلامي من أن هو اتغير، أن طبيعة شغله اتغيرت... علشان كده هو عايزك ترجع وتبقى تحت ايدي...

أطال نوح النظر إلى الطاولة، وأخذ يتذكر ملامح رجل المعلم الكونكان... هذا الرجل ذو اللحية الطويلة القصيرة الذي برع في كتابة العقود والروايات التي تحوم حول خدمه المطيعون، منهم نوح نفسه حينما كان يعمل معه. نظر نوح إلى أيوب نظرة وقار لأول مرة من سنين طويلة... وسأل مستفسرا عن الكونكان...

- ايه طبيعة عمله الجديدة... وهنقابله ازاي...؟

رد أيوب على السؤال بسرعة، مدركا انه بدأ يقنع نوح إلى الاتحتذاء بحزائه بعد ذكر اسم الكونكان ودخله بالموضوع...

- طبيعة عمله الجديدة اتغيرت عن طبيعة عمله زمان يا نوح... فبدل ما هتقتل في الخفا علشان تاخد الفلوس.. لا، هتقتل في العلن علشان ناخد الفلوس وهتلاقي الناس بتدعم افعالك...

وصهل بقوة كالحصان قاطعا بنوح الذي اراد أن يتبادل كلمات مستفسرة...

- ومش أي ناس هتقتلهم على الفكرة... تحت اسم المعلم كونكان احنا هنقتل الناس اللي مش محاظيظ، اللي هم ناس مش كويسة يا نوح... ناس قتالين قتلة وسفاحين وحراميه وكدا... تفتكر بقى هتخسر حاجة لو رجعت تشتغل معايا وترضي المعلم كونكان...؟

نظر نوح إلى أيوب نظرة ثقة وتذكر خدمات الكونكان عليه في الماضي، كيف أنه جلبه من التراب وبدل حاله من الفقر إلى الغناء، كيف أنه جعل له مكانة في مجتمعات الحارات والمناطق الفقيرة يهابه الناس بمجرد النظر في عيونه، كيف أنه صار سببا لجعل حياته أكثر هيبة ووقارا.

أنفض نوح من على الطاولة، خاتما كلامه مع أيوب...

- قدمني للكونكان...

ونهض من مكانه راضي القلب، في سعادة شديدة، يتبعه أيوب بصدر ضيق اجتمعت عليه هموم الزمان بسبب طول عهده.

نهض أيوب من على الطاولة، وسار وراء نوح كي يبلغه بخطواته السريعة ويقود الطريق في اللحظة التي وصل فيها القهوجي معلنا وصول القهوة والخمرة والشاي اثناء رحيلهم...

رد أيوب عليه وهو ينقل له نظرة وضاعة واشمئذاذ...

- خليها لأمك...

واختطفت أبواب الظلمات الرجلين، تاركة ورائها رجل كسول يبدو كالكلب الشارد لم يتحصل رزقه في هذا اليوم بسبب بطئ ارضائه للزبائن، القهجوي.

في حين آخر... في ورشة مظلمة عتمتها ظلمات الليل...

مكانها جوار بقالة الموت، تبتعد عنها بمسافة تقرب 200 متر، على الشارع العمومي المواجه للشارع الرئيسي التي تكن فيه بقالة الموت.

يصطج باب خشبي بقوة ضربته الأياد العتيقة، أياد عفى عنها الزمان.

- مين...؟

يصيح رجلا كهل بنبرات صوته الذابلة، يحك لحيته البيضاء الصغيرة قبل أن يضبط قبعته البيضاء ويتجه نحو الباب كي يفتحه ويدرك ماهية الأشخاص ورائه.

يرد نوح على الرجل الكهل من وراء الباب وهو يضرب عليه بقوة...

- افتح يا كونكان... انا نوح والمعلم أيوب معايا...

لم يلبث الكونكان ينتهي من سماع نوح يعرف نفسه بحماسة مع صديقه أيوب حتى فتح الباب بحماس شاب عمره مثمر، اقتلح القفل من مكانه وسحب الأكرة السوداء المدورة ناحيته. انفتق الباب إلى نصفين واشتعلت أضواء قوية في المكان ازعجت الأعين وآراكت حدقات الرجال الضيقة، وبدى المكان كما لو كان جحيما وهاجا.

- كونكان...؟!

صرخ نوح واندفع نحوه يحضتنه كما لو كان اخوه الذي سافر أعوام خارج البلاد وعاد إليها بعد عهد طويل.

- جيتلك زبونا يا معلم كونكان...

أقر أيوب وهو يضرب على صدره بكل فخر، كما لو حقق انجازا لم يتحقق مثله في التاريخ.

- حلو... حلو...

قال الكونكان وهو يدفع نوح بعيدا عن احضانه ويحك لحيته كي يستقبل آخر الأخبار على هذا الوضع الشيخوخي الذي اعتاد عليه وهو يستقبل الأخبار من عماله.

- بس ايه رأيك في الدخلة ديه...؟

سأل أيوب المعلم كونكان.

راوضه أيوب بالاعجاب رافعا صباعه الابهام.

لم يتفهم نوح رسالة الرجلين السرية إلى بعضهم البعض، وسأل عنها.

أهملها الكونكان وسأل نوح...

- جاهز علشان تشتغل زي زمان...؟

رفع نوح عينه نحو عينه اليسرى، وقلبه نحو عينه اليمنى...

- من العين ديه للعين ديه...

- عارف أنت هتشتغل ايه يعني...؟

سأله الكونكان وهو يتأمل أعينه بنظرات عميقة تحمل معاني الاعتياد بين الرجلين على الأعمال الشريرة التي قاموا بها معا.

- عارف يا كونكان...

أقر نوح وهو يطقطق فروة رأسه بأصابعه النحيلة.

- حلو...

قال الكونكان بصوت تأرجح في أنحاء ورشة الجحيم بصداه المتردد.

- طب انصرافم بقى علشان الليلة انا مأجز... بكرا نكمل كلمنا...

نقل الكونكان إرادته المستترة بين خبايا صدره في اقتضاب شديد، منصرفا إلى سريره الذي اصطج جوار طاولة كبيرة على الورشة اصطفت عليها الاحجار الكريمة وبعض من آلات العمالة الصناعية، وبعض من أدوات القتل كالسكاكين الطويلة وخطاف ملتوي يسيل من على سنه الأحدب الدماء الحية، ومنشار كبير احاط جمجمة منحوتة خلدت مكانها منذ موت صاحبها على يد الكونكان لأنه حاول الاستعصاء عليه.

- طب ولامواخذة مانزعجكش يا معلم كونكان...

قال نوح مقرا وهو يتجه نحو الباب الخروج بعد هذه المقابلة السريعة...

قال له الكونكان بسرعة قبل أن يغمض عينه اليسرى الصحيحة ويدس عينه اليمنى المشلولة في المخدة...

- كل اللي كنت عايز اعرفه انهردا ان أيوب جابك تشتغل عندي... مش اكتر... بكرا نتكلم.

هز أيوب رأسه معلنا موافقته، وسلك خطوتان نحو باب الخروج وهو ينظر نظرة أخيرة إلى الكونكان.

- تحت طوعك ليوم الدين احنا.

وأغلق الباب ورائه دون أن ينبه الكونكان إلى أنه لم يتربسه بالقفل، متأكدا أنه ما من أحد سيفكر في دخول عرين الكونكان بدون إذن، لأنه من يفعل هذا

تكون التربة واحجارها الكبيرة وجمارها الصغيرة مأواه الأول والأخير قبل موت السيد الكبير كونكان.

اتجه نوح إلى الخرابة التي لاطالما عاش فيها، مكانها جوار قهوة الشبح، فيها مسكنه الوحيد الذي يحيط شلل من القمامة، يبعد عن منزل جابر الشبح ببعض عمارات، وعلى عكس منزل جابر منزله لا تصل إليه العيون بسهولة، كما لو كان بيت سحريا يحيطه غشاء من ستر لا يدع العيون تراه إلا في اللحظات الصغيرة التي يدخل فيها نوح منزله ويخرج منه.

واتجه أيوب إلى منزله كذلك، منزله الذي يصطف مع حشد من العمارات الطويلة أمام البقالة، حمل عائلته الصغيرة التي خلوت من مقاسي الحياة ، ولم تخلو من مقاسي شرور زوجته أرواح.

تذكر الرجل في طريقه إلى المنزل الدجل والشعوزة التي مارستها أرواح على أصناف كثيرة من البشر صدقوا في كذبها، منهم هي الي صدقت هي كذبها بدرجة كبيرة.. لدرجة أنها صارت مجنونة مؤمنة بهذا الهراء والكذب. تخيلت أن عفريت أراد أن يتخلص من ابنهم يوما، وسعت إلى تلبية ندائها حتى يرتاح قلبها المؤمن بالجنون الشعوزة كساحرة منعزلة في القرون الوسطى.

هل يستطيع أيوب أن ينسى أحداث هذا اليوم، والجريمة العظيمة التي اقترفتها زوجته المجنونة بحق ابنه، وكيف أنها صدقت في هذا الحوار الباطل مع عفريت من العفاريت تخيلته امامها، اسمته غر؟

- غر... يا غر... عايز ايه انهردا...؟

تذكر عم أيوب زوجته المجنونة أرواح وهي تجلس أمام أعواد من الحطب مشتعلة، كانت قد ابتلعت بدمائها أفيونا قبل أن تجلس امام الحطب المشتعل، تشحذ أنفاسها الضيقة بالغبار الأسود المنبعث من حريق الأخشاب.

القت فردة من معدن النحاس، وشاهدت النار تشهق زئيرا كالأسد الغاضب ويتغير لونها في سرعة عظيمة إلى اللون الأخضر...

سمعت خلال شهيق النار صوت غر الذي تخيلته يثقب آذانها بصوت رعد دوي رج السماء رجا...

- خير يا أرواح....؟

سأل العرفيت المتخيل المرأة المجنونة التي استدعته.

- انا حضرتك يا غر... تأمر بأيه الليلة ديه...؟

وأنحنت برأسها أمام النار إلى عفريتها المتخيل دون أن تبال إلى المسافة القريبة بين شعر رأسها الطويل وبين النار المشتعلة، لدرجة أنه من قرب هذه المسافة بينهما كادت النار تشبك بشعرها وتشعل فيه حريقا من كحرائق الغابات في المناطق الغزيرة بالأشجار المندثة، كالأريزونا ووسط وجنوب افريقا.

- تأمر بأيه الليلة...؟ ابنك يا أرواح...

قال غر وهو ينفخ في النار حتى صارت قوية وكانت على وشك أن تبتلع المكان بأسره.

- ابني يا روح...؟ عايزه منه ايه...؟

- مصيره الموت يا أرواح... ابنك لازم يموت...

شهق الجن آخر أنفاسه قبل أن تنفخ روح في النار المشتعلة، وتختم مصير الجن بالخلود في عقلها.

- تأمري يا ايتها الروح المستدعاة...

وسعت في نفس اليوم إلى قتل ابنها وابن أيوب. بكت بكاء خفيفا مبتزل قبل أن تحمل السكين وتدق سنها في قلب طفلها المسكين الذي لم يمضي عمرا

كاملا في هذه الدنيا، وكبتت على انفاسه بعد موته، ثم دسته في صندوق القمامة قبل وصول زوجها إلى المنزل بربع بربع ساعة.

تمتمت في نفسها وهي تفعل هذا الجنون والهراء...

- كان لازم اعمل كده... كان لازم اعمله... سامحني يا ابني...

دخل أيوب عليها في هذا اليوم صدفة، لم يخبط على غرفة زوجته كما يفعل ككل مرة استئذانا منه للدخول، بل اقتحم الغرفة لأن حدثه أخبره أن شيئا ما خاطئا يحدث، وتتبع حدثه الذي كان يقينا.

محص فراش زوجته بعينه، الذي اعتاد أن يرى ابنه عليه، وسألها حينما لم يجد الولد نائما على الفراش...

- فين ابننا احمد يا أوراح...؟

تأوهت أرواح وهي تخفي السكينة التي استقبطت الدماء على سنها المدبب.

- ابننا يا ايوب...؟

ردد عم أيوب ندائه بقوة وقسوة...

- فين ابننا يا أرواح...؟

ولمح بسرعة السكينة التي قطرت دماء على الأرض في يد الزوجة المجنونة...

- أرواح... ايه ده...؟

استدرك أحداث هذا اليوم دون أن يعاتب زوجته لأنه خبير بجنونها، وقرر أن يتخلص منها على نحو خفي لا تشعر به هذه المرأة المجنونة.

اليوم الذي تقابل فيه مع الكونكان وعرف نوح عليه هو نفس اليوم الذي حدده أيوب كي يتخلص فيه من زوجته، عن طريق كوب ماء سيخلط سائله بالسم قبل أن تأخذ أرواح دوائها الكابسولات الذي تبلبعه بالماء.

دخل منزله وهو يرسم في ذهنه أرواح الدميم انتقاما منها ومن جنونها لابنه المرحوم، وسلك السبيل نحو المطبخ بسرعة.

انتظر ربع ساعة حتى نادته أرواح كي يأتي لها بالدواء، وخرج من جلبابه بكيسا غريبا رش فيه مسحوقه في الكوب الذي ملأه من الحنفية.

- هاتلي المية يا أيوب علشان ابلبع الدوا بتاعي...

صرخت أرواح من غرفتها الغامضة كالساحرة الشريرة.

نظر أيوب إلى كوب الماء بخبث، ورد عليها وهو يتجه بالكوب إلى غرفة الساحرة المنعزلة...

- جايلك يا أرواح...

وسلك خطواته المتريثة كالذئب الماكر نحو الغرفة. دخل الغرفة وهو ينظر إلى زوجته التي افترشت بجسدها على السرير والدواء جوارها.

- المية...

قالت أرواح وهي تمتد بيديها إلى كوب الماء.

واصل أيوب خطته الخبيثة وعابر أرواح كوب الماء آملا أن تشربه...

استلمت أرواح الكوب ونظرت فيه، بغرابة شديدة لم تشرب هذا الكوب دون أن تتأمله ككل مرة.

- ماتشربي وماتقرفيناش بقى...

هلع أيوب ملتمسا.

- لا... عايز كوباية تانية...

التمست أرواح وهي تنظر إلى الكوب بغرابة.

استحث أيوب أن زوجة أدركت السم في الكوب، وقرر أن يعبث معها عبث الزوج والزوجة كي يروج شكوكها بعيدا.

- لا ما انا مش هقوم اجيب كوباية تانية...

قال أيوب مدعيا أنه يداعب زوجته النحيلة التي بدت كامرأة من عصور القدماء المصريين بشعرها الأسود الطويل وحلق كبير لف حول آذنها اليسرى.

هزت رأسها وهي تقول...

- مش شاربة... اشرب انت الأول...

صدم أيوب. الكوب فيه سم، وإن شربه سيشل أو سيموت.

- اشرب انا الأول...؟ هنعزم على بعض...؟

رد أيوب ساخرا وهو يلف بعينه.

ردت أرواح عليه وهي تتأرجح برقبتها كمريضة نفسية تعاني عشقا حادا للقتل وخللا شديدا في التحكم بالأعصاب...

- اه... هنعزم على بعض... أشرب...

- أشرب...؟ ده دوا وانت عايز-

قاطعته أرواح ورددت ندائها قبل أن تخرج من الدرج بمسدس زوجها العتيق وتصوب به عليه.

- أشرب... مش هكرر... انا اتعلمت بعد الحادثة اني لما اصدق الجن ماصدقش حد غيرهم... موت ابنك أكيد هيأثر فيك، وانا مش هخلي عبد زيك يعوق ارادة الجن بموتي... اشرب يا اما تموت...

ولم يجد الرجل مفرا من شرب المحلول الذي أتى بأثاره المميتة عليه. فقد الرجل الوعي بعد شربة هنيئة ظفر بها وهو يتشاهد على نفسه، وسقط بجسده المفروش على السرير دون أن يعي إلى ما يحدث وإلى أي آثر مميت سيظهر عليه بسبب المحلول القاتل إن بقي حيا. هل سيموت أو سيكون محظوظا ببقائه على قيد الحياة، ولكن بجسد مشلول؟

# الباب الرابع

# يا!!!!!!!! عم ايوب

وبعد وقت قصير من تعارف نوح على الكونكان... واصابة أيوب بالشلل بعد أن حالفه الحظ ولم يدخل عالم الأموات من بابه على يد امرأته...

سعى يونس ملازما طريق الادمان، لا يستطيع أن يتوقف عن شم الدخان يوميا، بل وسائت الأمر لدرجة أنه صار يسقي حلقه الشراب المسكر كل يوم حتى لاحظ أحد اصدقائه المقربون له – غير جابر الشبح الذي دعاه إلى الادمان وأخبره عن نوح – أنه في أمس الحاجة للعلاج من الادمان.

أقر له صديقه ضرورة دخول المصحة النفسية التي يعمل بها دكتور قريب الصلة به، عشرة عمر طويلة سويا. المستشفى التي يعمل بها تبعد عن الفندق الذي يجلس فيه يونس قرابة كيلومترين، هناك سيعالجه الطبيب نفسيا ويتوصل معه إلى طريقة ما يقلع بها عن الادمان.

رفض يونس الأمر في بادئ الأمر، لأنه رأى أن الدنيا سوداء ومظلمة في وجهه، كل السبل انغلقت امامه بعد انفصاله عن زوجته وخسارته لعملة بسبب الأعراض الجانبية من الأدمان.

بدأ بالاخطاء في حسابات الشركة في بادئ الأمر، وشملت اخطائه دخوله مكتب المدير وسبه بأفظع الألفاظ بسبب مشكلة احمد وحسن التي حلت بالشركة، هذه المشكلة التي افسدت عليه حياته الدنيوية والزوجية بسبب الخسارة في النقد.

رفده المدير من العمل واعفاه من ضريبة قوية، لو كان أحد غيره مكانه لما اعفاه منها... اعفاه من الاتصال بالبوليس ورفع عليه محضر هجوم وتعدي على شركته، قد يجازي امامها عتابا قويا أمام القانون.

تقربت العلاقة بين صديق يونس، عم جابر الشبح، الذي عرفه على نوح بالكلام عنه غيبا، لا المقابلة، وصلة القرابة بينهم اشتددت بسبب عنصر الأدمان.

وصار يونس لا يرى في حياته شيئا غير أن المخدرات هي العلاج التي تذهب عقله عن الدنيا وتنسيه كل شيء يحزنه، وعم جابر الشبح يرى من ادمانه للمخدرات مع يونس أنها سبيل صداقة يرافقه به حينما تشتد الأمور عليهما.

مقط يونس جابر في بادئ الأمر بعد أن تلاحم مع الدخان لمدة يومين، وشكره بشدة بعد انتهاء أول أسبوع تلازمت لسته مع شيح السجائر الأسود.

- الا قولي يعم يونس... مش كده احسن بزمتك...؟ حياة خالية من المتاعب ورأسك فوق في السما...؟

سأله جابر الشبح يوما اثناء جلوسهم في عربة سرقها جابر من سنين في الماضي.

ظهرت ليونس صورة مختلة لزوجته لم تظهر فيها ملامحها، ورد على جابر بعد أن تلاشت هذه الصورة في ثوان...

- طبعا احسن...

وأرتشف نفسا كبيرا من إحدى السجائر الكبيرة التي لا يعطيها جابر الشبح لأي زبون على قهوة الشبح...

ثم طفح نفسها الأسود المتكثف في وجه جابر وهو يبسق بلغما خلال شرفة العربة المتحطمة...

- وأي احسن... انا كدا ناسي كل حاجة... ومرتاح... حاسس اني في الجنة خلاص... مافيش حاجة تزعجلي فكري ولا تضايقلي يومي... مافيش ذكريات وحشة انا بفتكرها أو هفتكرها...

قال يونس وهو يرفع رأسه نحو سقف العربة الضيق.

- مش قلتلك بقى طريق الموت مافيش احسن منه...؟

أقر جابر وهو ينفخ نفسه في وجه يونس..

ضرب سيجارته بطرف اصبعه قبل أن يأخذ نفسا آخر، وقال ليونس وهو يتخيل أموال كثيرة في مخيلة رأسه.

- ولسة لما تقابل المعلم نوح... حياتك هتتغير وتبقى باشا... مش بعيد تبقى مشهور بلقب الاكسلانس...

أفاق يونس من مرتخاه بالسيارة، معيرا انتباهه إلى صديقه جابر وهو يأخذ نفسيا قويا من سيجارته، حريصا على ألا يذهب هذا النفس تركيزه.

سأل يونس جابر الشبح بشغف وهو يأخذ آخر نفسا في السيجارة الكبيرة قبل أن يلقيها في مجاري الشارع...

- الا قولي بقى... من ساعة ما تقابلنا بعد زمن أنت عمالي بتقولي على الراجل اللي اسمه نوح ده... نوح راح نوح جيه... نوح مافيش زيه... نوح هيبدلك حياتك ويخلي اغنى اغنياء الناس... نوح عامل شبح الموت اللي ماحدش يعرف يجي جنبه هو واللي بيحاول بيموت قبل ما يشوفه... قولي بقى... مين نوح ده...

وتفاضل في الكلام مداعبا بعقل مغيب، مكررا سؤاله على الطريقة التمثيلية الشهيرة في الأفلام الاجنبية...

- مين نوح ده بقى بحق الجحيم...؟

وضحك يونس بلا وعي لثوان كالسقران الأخطل.

رد عليه جابر وهو يشعل سيجارته مرة آخرى، سيجارة صغيرة هذه المرة تختلف عن سيجارته الكبيرة التي ارتشفها في دقائق جوار يونس، قائلا...

- نوح ده نوع الرجالة اللي ماتقدرش تقولهم لا يا يونس... واللي ممكن يكافئك كويس جدا لو ماقولتلهومش لا... فاهمني...؟

مال يونس برقبته نحو شرفة العربة، أحس ضيقا شديد في صدره وهو يسأل جابر بعد أن اقتلع من اصبعيه سيجارة صغيرة اشعلها.

- مش فاهمك... ازاي يعني...؟ اشرح اكتر...

قلد جابر وضع يونس ومال برقبته نحو الشرفة، ثم قال وهو يتخيل نهرا من الدماء يسيل في وادي صغيرا امامه، يحطم شلالا من الصخور التي سدت مجرى دماء هذا الوادي...

- نوح قتال قتلة... بيقول للواحد أقتل القتيل وامشي في جنازته... وبقاله فترة عايز يتعرف عليك بعد لما قلتله عنك... فكر فيها يا يونس... وضع هيتغير مية في المية لما تعرف الراجل ده...

رد يونس على صديقه جابر قبل أن يعلق عينه ويتخذ من كرسي العربة مضجعا جوار صديقه هذه الليلة...

- يا سيدي هي عادت فرقة...؟ لو عايز يقابلني انا مستعد... بس قولي فين وامتى علشان اعرف اوصله...

ختم جابر انفاسه، قائلا بوجه شاحب استتر أسفل ظلمات الذل...

- ماتخفش... هو اللي هيقابلك وهيوصلك...

تعاقبت بعد هذه الحادثة الأيام بسرعة. ضغطت صديق نوح عليه والجمه دخول المصحة النفسية.

لم يجد يونس المفر من دخول هذه المصحة بعد أن ألح صديقه عليه ليلا ونهارا، واعدا له أنه حينما سيترك سكة الادمان سيتحسن حاله وسيتغير كل شيئا إلى الأفضل. لم يقنع يونس بكلام صديقه ولكنه قرر أن يخوض التجربة ولو لوهلة.

سلم جسده وعقله إلى أطباء المصحة النفسيين، واعتاد الجلوس يوميا في غرفة يجلس فيها أمثاله من بني البشر الذين يعانون أمراض نفسية خبيثة تظهر على اطبائهم اوقات الجلسات وحينما تؤتمر الممرضات باعطائهم الدواء حقنا أو عن طريق جلسات كهربائية في العقل.

حانت جلسة يونس صباح يوم السبت الساعة الثانية ظهرا حينما دخلت ممرضة طويلة القامة، جميلة الهيأة، شعرها أشقر وقصير، مالت نحوه معلنة أن الطبيب سيتحدث عنه بشأن ادمانه للمخدرات ودوافعه نحو هذا الادمان، بجانب مجموعة من الأدوية سيرجحها الطبيب له كي يأخذها حتى تتحسن نفسيته، ويتقلص اكتئابه الذي لم يشك الطبيب أنه سبب في ادمانه بالرغم من أنه لم يجالس يونس دقيقتين يتحدث معه عن اسباب ادمانه.

سار يونس وراء الممرضة، ضاربا عينه في الأرض، لا ينظر إلى ملامحها الجذابة وشعرها الذهبي الذي يشعل أضوائا ذهبية وبراقة في المكان، صفارا يلمع وسط بياض المصحة وغرف العلاج النفسي.

دخلت الممرضة على الطبيب بعد أن سلكت طرقة طويلة قطعها يونس بخطوات بطيئة من شدة الخوف والهلع، خائفا أن ينتقضه الطبيب ويعنفه لأنه أقبل على الادمان، فهو شخصية من الشخصيات الحساسة التي لا تقبل النقد من أي أحد، مهما إن كان كبيرا في القام والسن وصحيحا في نقده.

ودخل يونس حجرة الطبيب في المصحة بساقه اليسرى بعد أن أعلنت الممرضة وصولهما، قائلة...

- اتفضل يا دكتور محمود... الحالة وصلت اهيه... يونس...

دخل يونس الغرفة، اكتفى بتامل ملامح الطبيب الذي أرتدي معطف طبي أبيض وطويل يدس في جيوبه يده ورزمة من الأقلام الجاف زرقاء. امتنع يونس عن قول أي شيء حتى خروج الممرضة من الغرفة وتصريح الطبيب له بالكلام مع القائه التحية عليه.

- أزيك يا يونس...

رحب الطبيب بيونس ترحيبا قوية انبعث ببهجة قوية من قلبه.

- أزيك يا دكتور...

قال يونس وهو يقف مكانه واضعا كفه على الكف الآخر كما لو كان مذبنا، مرحبا بالطبيب ببابتسامة زائفة ومبتذلة.

مد الطبيب له كفا وقال له بهدوء...

- استريح يا يونس...

صدم يونس لأنه لم يتوقع أن الطبيب لم ينتقده من أول وهلة ويظهر مساوئ الدنيا ملها فيه لأنه اختار سكة الادمان بنفسه، لم تفارق السيجارة اصابعه في هذا السبيل قبل دخوله المصحة لفترة طويلة. جلس كما قال للطبيب وهو ينظر إلى الأرض في قلق وشعور شديد بالذنب... ورد السلام على الطبيب بكلمات متلعثمة...

- أزيك يا دكتو...

لم ينهي يونس كلامه لأن الدكتور قطاعه، وسأله باقتضاب شديد...

- أيه اللي خلاك مدمن يا يونس...؟

تمتم يونس بعض الكلمات الغير المفهومة، منحه الطبيب دقائق كي يجمع كلامه ويجيب على سؤاله، وحينما لم يظفر منه بأي اجابة لمدة دقيقتين ساق الطبيب الحوار قائلا...

- السؤال مش صعب يا يونس... عايز اعرف الدافع النفسي القوي اللي خلاك مدمن كده؟ صحبك قالي انك ما بقتش بتفارق السجاير طول اليوم، وبسببها خسرت شغلك بعد لما اتعصبت على المدير واهانته في شركته.

تفتكر ديه حاجة يتسكت عليها؟ لازم أعرف يا يونس ايه سبب انك بقيت مدمن علشان اختار الطريقة الصح اللي اعالجك بيها.

صمت يونس لثوان، ولم يجد مفرا من اخبار الطبيب السبب الذي جعله مدمنا.

اعلمه عن سبب ادانته بعقله وجسده لشبح الادمان بعد أن صمت لدقائق ظن الطبيب خلالها أنه لن يتحدث أبدا طول الجلسة.

- مراتي... مراتي...

قال يونس وهو ينظر إلى الأرض بعيون تظفر بالدموع التي سالت على الخدين.

- مراتك...؟ مالها يا يونس...؟ قولي ايه اللي حصل مع مراتك...

سأله الطبيب محاولا استقطاب الاجابة. خرج من جيب معطفه بورقة وقلب القلم من معطفه كما لو كان لصا يقلب حصيلة أحدهم من المال في المواصلات العامة، ثم كتب حروفا مبهمة لم يستطع يونس أن يقرأها.

استكمل يونس كلماته وهو يطوف وسط بحر من الاحزان والغدر...

- مراتي... خاينة... مراتي خانتني يا دكتور...

توقف الطبيب عن الكتابة، وشخص الحالة بعد أن تلقى وارد الاحزان من يونس من طابع بريد كبير مليئ بالعواطف.

- وكنت بتحبها جدا يا يونس... صح...؟؟

- لدرجة الموت...

رد يونس.

- انا فهمت...

قال الطبيب، ثم كتب بعض الكلمات المبهمة مرة آخرى بخط صغير وضيق.

- وحسيت بايه بعد لما خانتك...؟ احاسيس ايه غير الخيانة...؟ كره ذاتي...؟ فقدان أمل...؟ يأس من الحياة...؟ عايز اعرف بالتفصيل اللي حسيته...

رد يونس وهو يقلب كل هذه الكمات في ذهنه ويتخيل شخصه يعاني كل هذه المشاعر.

- حسيت بكل ده وزيادة يا دكتور...

- ايه يا يونس...؟

- احساس لما مايكونش ليك لازمة عند أي حد...

حك الطبيب خده وقال في نبرة مشفقة...

- فاهم...

ثم سأله مرة آخيرة قبل أن يخطو اسطرا وكلمات عديدة على الورقة الصغيرة التي خرج بها على الطاولة.

- احساسك ايه لما بتشوف اتنين ماشين جنب بعض، عاشقين أو زوج وزوجة...؟ أو لما بتشوف راجل شبه الراجل اللي مراتك خانتك معاه...؟ ممكن تكره علشان هو بس شكله...؟

تخيل يونس نفسه في هذا المشهد، جز على اسنانه وظفرت عيونه بالدموع، لم يستطع أن ينطق أي كلمة أمام هذا السؤال. تفهم الطبيب حالة يونس مائة بالمائة بعد هذا السؤال.

رد على يونس برفق شديد...

- مش لازم ترد خلاص... انا عرفت أنت عندك ايه... Depression... وPTSD...

لم يفهم يونس ولا كلمة مما قالها الطبيب. وسأله الطبيب آخر مرة...

- فرحت قبل كده بعد الاحداث ديه...؟

رد يونس ببرود وهو يمسح دموع عيونه التي ارهقت جفون عينه وجعلت عيونه ضيقة.

- سعادة لما بشرب السجاير بس... بكل بساطة لأني بنسى كل حاجة...

نقل الطبيب اصابعه نحو زر كبير لونه رمادي ينبسط على آلة غريبة تبدو الهاتف الأرضي، قال ليونس وهو يكشف ابتسامة عريضة...

- خلاص يا يونس... احنا خلصنا...

دخلت الممرضة الشقراء في الثانية التالية بعد انتهاء الطبيب من كلماته وضغطه على هذا الزر.

أخذت الورقة التي أخذ الطبيب يدون فيها أشياء لم يدركها يونس اثناء الجلسة، وقالت وهي تناوله ابتسامة عريضة وتشير بكفها نحو الباب...

- تعالى ورايا يا يونس...

تحرك الشاب ورائها سمعا وطاعة لأمر الطبيب، وليس طوعا لجمال شعرها الأشقر وجسدها المنحوت أسفل ثياب الطاقم الطبي.

اخذ يونس خطوات منتظمة وراء الممرضة حتى ترك الغرفة. عبر الرجل خلال ممر طويل وراء الممرضة، وناولته الممرضة خطاب صغير قبل أن يدخل يونس حجرة كبيرة سيأخذ فيها العديد من الأدوية، ويحقن بسائل أو سائلين من السوائل المهدئة التي تخفف من حدة الاعصاب.

- أنت عانيت تجربة وحشة قبل كده يا يونس...؟

قالت الممرضة وهي تتباطئ في خطواتها حتى تقترب من الرتم الذي يسير به يونس، فتبدو كما لو كانت مثل خطيبة تسير جوار خطيبها بمحازاته ( يونس ).

سألت الممرضة فجأة يونس قبل دخوله الغرفة بثوان...

- انت ممكن تقولي ايه اللي خلاك بقيت مدمن؟

استغرب يونس من سؤال الممرضة لأنها تطرح عليه هذا السؤال مرة آخرى، ألم يجب الطبيب عليه حينما كان جليسه بالغرفة؟

- أنا جاوبت بيه على الدكتور يا استاذة...

ردت الممرضة بسرعة قبل أن تدس عيونها الواسعة في ورقة الطبيب...

- طب انت عارف انا اسمي ايه... فريدة... فريدة العاصي...

لم يتفهم يونس السبب وراء سؤالها الفجائي وتعريفها بنفسها له، ولكنه كان يسير مع الموج فلا يقول لا أبدا.

أردف يونس وراء الممردة نحو ممر على يمينه سلكها بكل هدوء ورائها، وأجاب على سؤال فجائي آخر سألته الممرضة الشقراء فريدة له.

- قتلت قبل كده يا يونس...؟

سألت فريدة، ظانة أن هذا سبب تواجده في المصحى النفسية العامة، رجل قتال قتلة لديه شهوة قوية تجاه القتل لا يستطيع عقله أن يمنعه عنها.

رد يونس عليها بالنفي التام...

- لا طبعا...

تجاوبت فريدة بسرعة...

- امال PTSD... ليه...؟

سألت في حيرة من أمرها، وأقرت بسرعة قبل أن يسألها يونس مستفسرا عن مرض الPTSD...

- هو يعني ايه المرض ده اساسا...؟

سأل يونس في تشوق.

ردت عليه فريدة بنفس بارد...

- المرض النفسي ده معناه ان فيه تجربة وحشة جدا حصلت في حياتك لدرجت انك مش عارف تستمتع بحياتك وعندك زي اكتئاب من كتر ما انت بتشوف الحاجة الوحشة ديه قدامك في تخيلاتك واحلامك... مش بتشوفها حتى وانت قاعد مع نفسك في لحظاتك الخاصة...

ومن ثم قالت وهي تروج لبرقان شعرها الذهبي وهي تحكه بسرعة بأصابع نحيلة...

- وأغلب اللي بيبقوا Diagnosed بالمرض ده بيبقوا شافوا نوع من أنواع القتل البشع في حياتهم... بس هو مش شرط يعني يكون قتل ودم علشان يجي لحد...

رد يونس على فريدة في غضب شديد، ظانا أنها تقلل من بئس مشكلته التي استدعت أن يشخصها الطبيب... مرض PTSD...

- أنت مش دكتور على فكرة علشان تقولي تجارب أيه اللي بتأثر على الذات وتأذيها وتجارب ايه اللي مابتعملش كده...

تجاوب يونس مع فريدة وهو يتذكر كل ما حدث له بسبب زوجته الخائنة في لحظات قليلة.

استنكرت فريدة في سرعة ملحوظة...

- لا انت فهمت غلط مش قصدي...

- امال ايه...؟

- قصدي أقول مافيش حاجة تستاهل للدرجة ديه علشان يجيلك PTSD... ممكن أسئلك سؤال خاص يا يونس... معلش يعني لو هتعدي حدودي شوية... ايه التجربة الوحشة قوي كده اللي خليت الدكتور يشخصك PTSD...؟

رفع يونس كفه في الهواء، تخيل دبلة من الفضة تعبر خلاله اصبعه، وتخيل هذه الدبلة تحترق بين اصابعه في الثانية المجاورة.

لم يرد على سؤال فريدة... واكتفى بالصمت إلى حين وصولهما إلى الغرفة التي سيحقن فيها ويأخذ في الدواء، وبعد أن دخلت الغرفة، لم يتوقع أن تمزح معه فريدة وتداعبه بالكلام مقتربة منه في طريقة عاشقة مهملة مع ممرض في سترة زرقاء منه بسن حقنة كبيرة.

- هعرف... هعرف برده ايه سبب احزانك وهخفف عنك...

ابتسمت قبل أن تخرج من الغرفة.

أغلقت الباب ورائها برقة شديدة، تاركة نسيم من الهواء الرطب يدلف أسفل أرجلها النحيلة التي حملت جانبا كبيرا من الأنوثة.

عقب الممرض على هذا المشهد وهو يقترب من يونس...

- لطيفة قوي البنت فريدة ديه... مش كده...؟

هز يونس رأسه موافقا.

- بس عارف ايه اللي الطف منها...؟

سألها الممرض الذي وضع كماكمة كبيرة خضراء على وجهه بيضاوي الشكل.

- ايه...؟

سأل يونس بالسزاجة التي اعتنقها منذ أن أتى إلى هذه الدنيا.

أراه الممرض سن حقنة مدبب وكبير، يخرج من نهاية الحقنة، يبدو كما لو كان طويلا أمتار عديدة في الهواء.

صرخ يونس والممرض بثغر يبتسم بخباثة أسفل الكماكة يعقب...

- ديه الطف حقنة هتخدها في حياتك... قول pleeeeeeeease....

أنغلق المشهد ويونس صرخ في الغرفة كما لو كان يعذب في غرفة التعذيب، والممرض يثقب بدنه بسن هذه الحقنة اللاذع.

وفي نفس ذات الآن...

مكالمة هاتفية واردة من شخص ممقوط طلب فريدة العاصي على هاتفها الخاص...

استأذنت الأطباء بضع دقائق كي ترد على المكالمة...

وإذا بها تتلقى صوت حشاش يأخذ انفاسه السريعة على الهاتف قبل أن يلقي عليها التحية بطريق العاشق الوقح، الذي يظن أنه كلما يعتاد على الشخص يزيد من القرابة بينه وبينه...

- أزيك يا عسل... وحشاني قوي...

صوت مألوف، صوت شخصية تشمئذ منها اسمها نوح.

هي تدرك أن نوح يحبها منذ أن رأها أول مرة حينما جاء إلى المصحة كي يقلع عن الادمان قبل أن يعود أدراجه عن هذا المسار، ويصير مدمن بعد يوما من دخوله المصحة مرة آخرى.

- نوح... انا في شغل دلوقتي...

قالت فريدة، فرد عليها بنبرة طويلة...

- وانهي اللي أغلى يا حبي... حبيبك نوح ولا الشغل...؟

لم تجد ردا مقنعا ترد به على الرجل، لا تريد أن تقول أن عملها أهم منه في وجهه فيأتي هاغاضبا في اليوم التالي يشتكيها للاطباء ولادارة المستشفى بسبب وقاحتها في "التعامل مع الذبائن" كما سيزعم، وأيضا لا تريد أن ترد عليه كذبا وزورا، وتضحك على نفسها بقولها أنها تحبه في آذانه على هاتفها العتيق.

ربضت مكانه لا تقول أي كلمة على الهاتف وانتظرت رد فعل نوح... عساه يقلع عن بجاحته ويترك وشأنها.

التمس نوح الرد ببجاحة بعد أن لازم فراقا طويلا لم يتحدث فيه مع فريدة، قائلا...

- وده طبعا سكوت من عندك علشان مش عارفة تقولي أني شغلك اهم مني... قفشتك يا صاعية... بحبك... بحبك موت...

سحبت الهاتف من على أذنها ونظرت باشمئذاذ إلى رقم نوح الذي تمنت لو أنها مسحته منذ زمن، وقالت إلى نوح بنبرة كلها عجلة...

- معلش يا نوح عندي حالة دلوقتي ولازم امشي... هكلمك بعدين...

- حالة...؟

سألها نوح بسرعة.

أرتجلت الفتاة اسم حالة يونس كي تتخلص منه، دون أن تعير انتباها إلى صلة بعيدة بين نوح ويونس هي لا دتكرها...

- واحد اسمه يونس... مدمن مخدرات... لازم امشي دلو...

قاطعها نوح قائلا: استني...

ثم وصف لها بعض من ملامح يونس الشكلية وجزء لا بأس به من ماضيه، ذاكرا أهم ملمح من ملامح هذا الماضي لها، كاشفا ذروة التعاسة في قلب يونس...

- يونس اللي بقى مدمن علشان مراته اللي خانته...؟

أخذت فريدة جانبا مظلما في زاوية ضيقة من زوايا المستشفى، وصرخت إلى نوح في صدمة...

- أنت تعرفه...؟!!

رد نوح بكل ثقة، مدعيا أنه يعرف يونس كامل المعرفة وأنهما أصدقاء عمر منذ القم.

- إه اللي أعرفة... ده انا أعرف عنه كل حاجة من ساعة ما أتولد لحد دلوقتي...

تخيلت فريدة وجه يونس أمامها، وتخيلت نفسها صديقة قديمة له تصدم فيه وفي اخلاقه بعد أن أعلمها نوح كذبا أنهما صديقين.

- طب وممكن تقولي يونس عمل ايه علشان يخش المصحة...؟ معلش شوية شغف واكلني...

قالت فريدة.

رد عليها نوح بريق يسيل على الهاتف كعسل النحل، متمنيا أن تأتي المزيد من هذه اللحظات على الهاتف وتدوم دائما.

- منا قلتلك... مراته خانتنه... وبعد لما ده حصل ماعرفش يسامح نفسه وبقى مدمن مخدرات.

تخيلت فريدة امرأة تطعن زوجها من خلف ظهره بخنجر كبير كابد زوجها عاهة مستديمة بسببها، ثم قالت في نفسها قبل أن يستكمل نوح كلامه.

- لا مقنع الصراحة يا يونس... يا حبيبي... مش أي حد يستحمل ده فعلا...

- عارفة وحصل ايه بعد كده للراجل يا حطة فردوس...؟

اشمئذت فريدة بعد أن ناداها نوح بهذا الاسم ( فردوس ) ووصفه له أنها ( حطة ) كما لو كانت بضاعة في يده.

ثاربت الانصات على إلى الهاتف فقط لكي تتعرف على ماضي يونس، ولولا هذا لكانت اغلقت السكة في وجه النوح وصفعته أفضل بلوك لم تصفعه لأحد من قبل خلال قرون طويلة.

- ايه اللي حصل...؟

- جالي... يونس جالي عن طريق صحبه الشبح وبقى مدمن. شفتي احنا بنغير حياة الناس للأحسن ازاي...؟

أحست فريدة أن رجلا طعنها في قلبها بعد أن أدركت أن نوح هو سبب من أسباب أدمان يونس من سكة بعيدة، وصرخت في الهاتف بسخرية قبل أن تغلق الخط في وجه نوح بغضب شديد، دون أن تأبه إلى العواقب الوخيمة التي ستتلقاها من نوح قتال القتلة بسبب اغلاقها سكة الهاتف في وجهه.

- نوح أنت شخصية زبالة بجد. تغير حياة الناس ازاي للأحسن لما تدمر حياة بني وتخليه مدمن... ربنا يولع فيك وفي امثالك يا أخي.

اتنظرت بعدها ساعات حتى حلول مساء هذا اليوم، استأذنت من طبيبها أن تسحب يونس من الغرفة العامة التي جلس فيها مع اقارنه المرضى النفسيون الذين التمسوا علاجا نفسيا يحسن مجرى حياتهم، وسمح لها الطبيب بالمقابلة، بشرط ألا تتعدى مقابلتهما عشرة دقائق.

- يونس... ممكن أسئلك سؤال خاص...؟

سألت فريدة بوجه جاد حمل ملامح صارمة وقاسية جعل يونس يظن أنه أقترف جريمة كبيرة في حق المستشفى التي تلقى فيها علاجه.

- ايوة...؟

- أنت عارف اني من day one وانا شغوفك بيك... صح...؟

قالت فريدة. ولم يفهم يونس مقصدها الرومانسي من طريقة كلام غير مباشرة.

- نعم...؟

بادرته فريدة قائلة.

- ممكن أعرف ايه العلاقة بينك وبين نوح قبل ما تيجي المستشفى وتتعالج من الادمان...؟

تدبر يونس السؤال، مدركا أنه هناك حبل صلة ما بين فريدة وبين نوح الذي سمع عنه من بعيد لبعيد، لأنها لن تسأله هذا السؤال دون وجود حبل صلة بينهم. أجاب يونس على فريدة بمنتهى الصراحة دون كذب أو خبث في الاجابة...

- نوح ده انا سمعت عنه الأول من صحبي الشبح قبل ما يرجحلي حل الادمان... وطبعا انت عارفة انا بقيت مدمن ليه... صح...؟

ردت عليه فريدة رد خبير يرى كل شيئا أمامه بكل سهولة حتى ولو كانت هذه الأشياء بعيدة عن ملتقى بصره ويبدو للجميع أنه من الصعب أن يصل إليها.

- مراتك اللي خانتك... صح يا يونس...؟

أحس يونس من فريدة رفقا ولينا في نبرة صوتها حيما ردت عليه.

ظن يونس أن الطبيب لم يصن أمانة الطب وصرح بسر حالته للمرضة على جهل تام بأن نوح هو من أخبر فريدة بهذا السر على الهاتف باكرا.

- وهو ده الدكتور اللي المفروض انه بيخفي أسرار الحالات بتاعته...؟

سأل يونس في سخرية.

- باين على وشك... باين على وشك يا يونس من غير ما تقول...

اجابت بنبرة رومانسية لم يعتد الفتى أن تتحدث بها أي أنثى معه، حتى حينكا كان زوجا صالحا مع زوجته الخائنة.

سألت فريدة بسرعة بعد أن درست عبر ساعتها أن الوقت المتبقى على الزيارة خمس دقائق...

- أنت تعرف نوح من مسافة قريبة...؟

طقطق يونس منكرا، واجاب بصراحة مرة آخرى...

- زي ما قلت انا بس سمعت عنه من صحبي... غير كده ولا اعرف عنه أي حاجة...

همست فريدة في نفسها.

- يبن الكدابة...

سمعها يونس وسأل في غضب.

- نعم...؟

- لا مش أنت...

أقرت فريدة قبل أن تقول ليونس في هلع شديد...

- لو سمحت يا يونس نوح ده تبعد عنه خالص... ممكن أرجوك تعمل كده علشان خاطري...؟

وضمت على شفهاها التي سبحت في احمر الشفاه الرقيق المتدفق على حوافها.

تجنب يونس بعض النظرات الرومانسية التي نظرت بها فريدة إليه بين الحين والآخر اثناء تحاورهما سويا في بعض المواضيع الجانبية بجانب موضوعهم الرئيسي، نوح وضرورة ابتعاد يونس عنه...

- انا ماعرفوش اساسا يا فريدة علشان أقرب منه أو أبعد عنه. كل اللي اعرفه عنه اسمه... وبعدين يا ستي كلامك كله نوح نوح نوح... ممكن أعرف ليه بتشددي علي اني أبعد عن الشخص ده...؟

خفق قلبها بسرعة شديدة وهي تجيب على السؤال...

- نوح قتال قتلة وحشاش كبير يا يونس... الناس اللي زي ديه وسخين وبيدمروا حياة ناس تانية... ترضى أنت واحد لطيف وحلو زيك تتدمر حياته علشان شخصية بشعة زي ديه..؟

سألت سؤالها بنبرة رقيقة للغاية.

بلع يونس ريقه وهو يدبر كلام فريدة في عقله.

دخل غرفته بعد أن أنقضى وقتهم، ولم يدرك أنه في يوم من الأيام سيتلاقي مع نوح لأول مرة ويتقابلا وجه لوجه.

السؤال الأهم هو: هل سيقنع يونس بكلامح فريدة ويبتعد عن نوح؟ أم سيقنعه نوح بأن يصير قتال قتلة مثله؟

# الباب الخامس

# مجنون الأقمار...

قديما عرفوا الجنون أنه تكرار نفس الشيء أكثر من مرة وتوقع نتائج مختلفة...

وفي نفس ذاته الجنون هو تكرار نفس ذات الشيء بلا هدف من تكراره...

حسن المغربي أخو سناء المغربي هو الرجل الذي أتخذ من الجنون مذهب يسير عليه طول حياته.

ورث عن والده ووالدته أموالا كثيرة تكفي الفقير طعاما وشرابا ومسكنا وزواجا لعرشين عاما في أي مكان يخطو فيه بأرجلة، حتى ولو كانت متطلبات الحياة فيه ثمينة...

وبالرغم من مصدقية هذه الحقيقة وانطباقها على كل شخص إ حالفه الحظ ووقعت يده على أموال حسن الغربي، إلا أن الرجل المجنون فقد أمواله كلها في أقل من عامين... وكل هذا بسبب جنونه وعشقه للأقمار ولاعبيها.

هل تنسى سناء المغربي – أخته – كيف أن أخيها المجنون دخل عليها يوما يطبي حصتها كلها من المال كي يلعب بها الأقمار، كاذبا عليها وهو يقول لها أنه يريد أموالها كي يدير شئون المنزل الذي تركه الوالدان كنزا ثمين في يد ولديهما...؟

تحدث حسن المغربي لسناء المغربي بصوت صلب، تخرج مقاطع الألفاظ منه سميكة وغليظة، كما لو كان صوت عجوز يتعنف في الحوار مع شاب من شباب هذه الأيام بعد أن سخر منه الشاب...

-مش ناوية تديني فلوسك بقى يا سناء... البيت هيقع فوق دمغنا لأنك مش عارفة تنظمي اقتصاد البيت تحت أيدك يا اختي؟

ضربت سناء على صدرها، وقالت بصوت أنوثي دسم في نبراته كصوت أخيها حسن المغربي تماما...

-مش عارفة انظم بالفلوس اقتصاء البيت برده ولا مش عاوزة العب بيهم أقمار زيك...؟

شد حسن المغربي قصيلة بيضاء وسط شعره الأسود، وجز على أسنانه بعد أن أدرك دهاء اخته، وأنه لن يظفر منها بقرش واحد من نقوضها التي شرعها لها والديها قبل موتهما...

-اعقدي قولي كده لحد لما البيت يقع فوق دماغنا... نسوان تعبانه في دماغتهم...

درست سناء المغربي ثياب أخيها مهملة الهيئة، التي كست جسد الرجل بعد أن فقد كل أمواله وراهن على ثيابه الثرية اثناء جولة أقمار مع أصدقائه الذين لا يعرفونه إلا حينما يأتي بأشياء يراهن عليها كي يخسرها...

-انا برده اللي تعبانه في دماغي...؟ شوف انت لابس ايه دلوقتي وكنت لابس ايه قبل كده...؟ فين البروفل اللي كان بألف جنيه... فين الجزمة اللي اشترتها بألفين جنيه...؟ فين كل ده...؟ أنا كل اللي شايفاه قدامي كوفية واحد فقير ضيع كل فلوسه على الأقمار...

ثم قالت قبل أن تدلف من أمام وجه أخيها وتسلك خطوات سريعة صوب غرفتها التي تربثها بالقفل حتى لا يقتحمها أخيها عليها ويبحث عن قسطها من المال المكنوز في مخبئ سري في دولاب الغرفة...

-أنسى يا حسن.. أنسى...

قرع الرجل الباب بيده القوية قبل أن يخرج من المنزل وهو يصرخ...

-انا بكرهك يا سناء... بكرهك!!

وتخيل أمامه النقود والكروت تتطاير على طاولة كبيرة جلست عليها النسوة الحسناوات والرجال الأثرياء الذين اختزنوا بحور عملاقة من الأموال في بطونهم وجيبوهم الأنفية...

ذهب في هذه الليلة إلى ورشته القديمة التي صادفت اقامتها نفس الحارة التي نشأت فيها الساحرة الشريرة – أرواح.

جلس على كرسي خشبي ساقه اليمنى شبه مكسورة، يقارف كسرها انشان صغيران تخللا عمود رفيع من الأخشاب يحمل قاعدة المقعد، لو تأكل هذا العمود انشين سقط المقعد بما حمل.

تأمل حسين المغربي المعدات الثرية التي كانت في ورشته، في الماضي البعيد، قبل أن يرتجل سببا غير منطقيا لخسراتها يلوم فيه أخته سناء.

-ما هي لو كانت ادتني كل فلوسها كان زماني رجعت اللي خسرته في اليوم ده...

قال الرجل وهو يتذكر خسارته الفاضحة حينما راهن على كل المعدات في هذه الورشة بأثاثها الثمين.

لام أخته التي لم تدرك يوما أنه يلعب الأقمار بعد أن ورث والديه بعام على الخسارة الزريعة في هذا اليوم لأنه لم يمتلك مال آخر يراهن عليه.

تخيل نفسه يقتل اخته كقتال بارع، يضع المخدة على رأسها ويطلق رصاصة هامسة تنقل روح أخته إلى الجنة ونعيمها، كل هذا لأنه يريد أن يحصل على مالها ويستكمل لعب الأقمار التي لم يلعبها لمدة أسبوع.

قرر أن يجلس على مقعدة المتهالك ويفكر في طريقة ما يحصل بها على أموال اخته... سواء شريعة لن تفضح سره، أو غير شرعية ستفضح رغبته.

راح عقله بين أفكار جهنمية وخبيثة... فكر مرة أن يستعير رجلا يكره نفسه على سناء، فيتزوجها، ثم يقتسما مال أخته معا، ولكنه أعرض عن هذه الفكرة لأنه ظن أن الرجل سيطمع في نصيب أكبر من المال الذي سيتفق عليه معه، وهو لا يريد أقل من 95% من مال أخته، فأعرض عن الفكرة.

فكر أن يستعير لصا يقتحم المنزل ويكسر غرفة أخته، فيسرق المال ويجلبه إليه، ولكنه أعرض عن هذه الفكرة كذلك لأنه لم يستأمن أمانة اللص أولا، فقد يهرب بالمال كله إلى بنها ويصير هو واخته فقيرا، كما أنه تأكد أنه إذا حدث وحصل على المال عن طريق اللص وأخفاه عن أخته سرا، فسيسوق الخاطر إلى سناء أن أخيها هو السبب في خسارتها لمالها خصيصا بسبب ضغوطه عليها كي يحصل على المال منها. فأعرض عن الفكرة.

ثم فكر أخيرا في طريقة تبدو تقليدية وهراء فهراء... لا حياة فيها لأن سبلها كذب وأساطير... ولكنه اقتنع بها بناء على قصص سمعها من أصدقائه.

-نعملها عمل...

فكر أن يختلق عمل لأخته بمعاونة شخص ما، يكون هذا العمل سببا في أن تمنح اخته أموالها له، إما وعن اقتناع وإما عن غير اقتناع...

فكر عقله في شخصا واحد بارع في اصطناع الأعمال التي تدمر حياة الناس.. شخص سمع عنه أنه سبب في شلل نصفه الآخر... أرواح.

-نروح لأرواح... ونقله تعمل عمل لأختي يخصلني منها ويخليني أخد كل فلوسها...

وضحك مكانه ضحكة شريرة تحفظه على النصر، إلى جانب صور ومشاهد عديدة له يكون فيها جالسا على طاولة الأقمار، يراهن على هذا وعلى هذا، ويكسب الرهان أمام هذا وهذه، متحصلا نقود كثيرة في أخيرة الليلة.

وقبل حلول فجر هذه الليلة بساعتان... وصل حسن المغربي إلى باب منزل أرواح وزوجها أيوب، في ساعة تأكد فيها أن أيوب ليس بالمنزل من أحد اصدقائه الذي تلقى يد العون من الساحرة الشرير أرواح.. حينما اصطنعت له عملا يخلص من مشاكله.

ضرب حسن المغربي بقوة على باب أرواح، وقبل أن ينتظر دقائق ويضرب على الباب مرة آخرى بقوة رأي الباب ينشق إلى نصفين أمام عينه، تخرج منه أرواح بجسدها الأنوثي الطويلة في عبائة بيضاء تسرت قصيلات شعر خفيفة البياض اشتعلت بوهجان لامع مع بياض العبائة.

-مين اللي بيخبط في الساعة ديه...؟

سألت أرواح. نظرت إلى حسن المغربي متأملة ملامحه، ولم تلاحظه وتدرك ماهيته. أدركت أنه ذبون جديد جاء إليها ملتمسا الخلاص ولكن في ساعة متأخرة من الليلة.

قالت لحسن المغربي قبل أن يقدم نفسه لها ويقول لها في عجالة سريعة السبب وراء زيارته الليلة له...

-تعالى بكرا انا مش بشتغل دلوقتي.

امتد حسن إلى كف أرواح بسرعة قبل أن تغلق الباب في وجهه، وصرخ في آذانها ملتمسا النجاة...

-ما ينفعش يا أرواح... انا جايلك علشان تغيثي المستغيث... ماينفعش ماتلبيش نداء الاغاثة... امانة عليك يا أرواح.

ولعق كف يدها تقبيلا قبل أن يضعها فوق رأسها ملتمسا النجاة مرة آخرى كما يلتمس العبد النجاة من السيدة.

أشفقت أرواح على حسن المغربي بعد أن وجدته متوسلا أسفل اقدامها، ودخلت به إلى لب المنزل، غرفتها المهملة التي لاطالما اختزنت فيها كتب عن السحر والشعوزة.

همس حسن المغربي في آذانها وهو يدخل غرفتها بالرجل اليسرى...

-عايزك يا أرواح تعمليلي عمل...

فردت عليه وهي تنظر إلى أغرادها في غرابة شديدة...

-عمل...؟ عمل لأيه بالظبط.

انتقل حسن المغربي إلى النقطة التي جاء إلى أرواح لأجلها... وقال بصيغة مباشرة...

-عايزيك تعمليلي عمل يقتلي اختي أرواح...

نظرت أرواح إلى سقف الغرفة مدركة أنه ما من عمل تستطيع أن تصطنعه كي يقتل شخصا ما، وانتقلت بتفكيرها إلى صديق من أصدقاء زوجها أيوب، ثم قالت: ده مش عمل... ده نوح...

لم يأله حسن المغربي إلى الطريقة التي سيتخلص بها من اخته، فقط ترجي مرة آخيرة قبل أن يقول لأرواح تخلصي من اختي سناء المغربي...

-اعملي اللي انت عايزاه... انا عايز اختي ميتة علشان اخد الفلوس...

لم تستفر أرواح بعمق عن السبب الذي أراد حسن المغربي اخته ميتة لأجله، وقالت...

-اديني العنوان والمكان وعلى بكرا يكون كل شيء خلصان...

سحب حسن المغربي ورقة من قميصه، التمس قلما جافا من أرواح وسرد على الورقة عنوان المنزل. لم يرى في هذا اللحظة غير نصيب اخته من الأموال تحوم حوله كما لو كان رجل ذو هيبة ومنصب يعوم في بحر من الثراء.

غادر حسن المغربي إلى مكان آخر غير منزله يمضي فيه ليلة أو ليلتين إلى حين انتهاء الموضوع حتى لا يشك أي شخص فيه.

وفي ليلة المقبلة...

الساعة الثانية مساء...

قرع على باب المنزل ضربات رجل قوية ارتج المنزل بسببها...

هلعت سناء وحيدة لترى من يضرب على الباب بهذه القوة في مثل هذه الساعة... ظنت أنه البوليس أو المباحث...

صرخت بخوف وهي تسأل من على الباب...

-مين....؟!

رد عليها رجل بصوت قوي يقول...

-افتحي يا سناء. أنا حسن...

-حسن...؟

سألت سناء بنبرة حائرة قبل أن تقترب من الباب وتنظر من العين السحرية لم ترتح إلى حسن هذه الليلة.

نظرت ولم ترى غير سواد الكف الذي غطى على عدسة العين السحرية.

-حسن...؟

سألت مرة آخرى.

صرخ الرجل قوة وقسوة...

-افتحي بسرعة يا سناء.

ولم تجد سناء المفر من فتح الباب للرجل الذي زعم أنه حسن.

وحينما فتحت الباب، إذا به تشعر بشفرة حادة تشق السبيل إلى قلبها، فتتنهد وسكرات الموت تسير في دمائها.

نظر الرجل الذي أدعى أنه حسن إلى سناء نظرة طويلة جلبت الخوف إلى قلبها قبل أن تطغى شاشة سوداء عليها وتسقط أرض، فتختفي الحقيقة وراء عيونها.

لم تدرك أن الرجل الذي قتلها ورأته آخر مرة في دنياها هو نفس الرجل الذي صادق نوح بالمخدرات... رمز الفساد والقتل... نوح.

وتلاشت روحها مع حلول صباح اليوم التالي.

مر أسبوع تسائل فيه كل من في البلدة عن قاتل سناء، ولم يتوصل منهم أحد إلى أي شيئ، ولا حتى الشرطة وصفوة رجال القانون، فقط رجل واحد توصل إلى الحقيقة وهو يثبت أنه أحق انسان بالحصول على ميراث اخته بعد موتها... حسن المغربي.

هفو الرجل بكل سعادة حينما صدقت المحكمة العليا بحصوله على المال دون أن تلفت النظر أن أقرب قريب لسناء هو قاتلها من على بعد، بعد أن قتلها نوح من على قرب.

انتهى كل شيء بعودة حسن المغربي إلى اللهو بالأقمار، وبدأ يخسر كل المال شيء فشيء، حتى حلت هذه الليلة التي راهن فيها على خمسمائة ألف جنيه وخسر ماله كله أمام منافسه ( الوحش ).

صار وحيدا لا يفعل شيء في حياته بعد أن كانت الأقمار تسليته الأولى والأخيرة. غرق في احزانه التي جعلته يقف فوق سقف المبنى، يلقى ببدنه من فوق السقف كالمجنون وهو يرى الكروت والأموال تتطاير من حوله في جنون شديد.

انتهت حياة هذا الشخص على يده بسبب جنونه بالأقمار، وصار معرفوا بمجنون الأقمار.

صار اضحوكة أرواح وأسطورة يتحدث عنها نوح مع أصدقائه بسبب هذه الحادثة، ولم يسطر له التاريخ له لقب غير لقب... مجنون الأقمار.

- ده مش عمل... ده نوح...

# الباب السادس

# بداية النهاية

ما الذي يحدث حينما يتقابل اثنان تحابا حبا شديدا من أعماق قلوبهم؟

هذا هو السؤال الذي سيجيب عليه القدر حينما تصرح فريدة العاصي، في هذا اليوم الذي اصطفت فيه السماء ليلا، بحبها الشديد ليونس.

دخلت فريدة العاصي على يونس في غرفته بالمصحة النفسية، وهنأته على قرب شفائه من ادمانه القاتل مرة وللأبد...

وقالت له وهي ترسم ابتسامة عريضة على وجها المليح.

- ألف سلامة عليك يا يونس... هتخف خلاص من الادمان بتاعك... انا سعيدة علشانك...

ثم بادرت يونس سؤالها بسرعة قبل أن يشكرها يونس على بركتها له لأنها ساهمت بشدة في اسقائها كأس العلاج ذو المذاق المر بروحها الخفيفة في المستشفى.

- بص يونس... أنت كلها أيام وتسيب المصحة... ممكن أسألك سؤال غريب حبتين...؟

همست سناء إلى يونس وسمح لها بالسؤال بعد همهمة طويلة منه خرجت من فمه الجاف.

أخذت فريدة العاصي خطوات رومانسية نحوه، ثم قالت وهي ترتجف بجسدها قلقا وتشحب بوجها الأبيض النحيف ارتباكا.

- أنت أكيد فاهمني يا يونس... صح...؟

- هممم...؟

همهم يونس مرة آخرى تجاوبا على سؤال السيدة الغامض الغامض، وشهد فريدة العاصي موجات متباطئة من الكلام تستدرجه قولا بها إلى عواطفها الحقيقية تجاهه.

- قولي يا يونس... بعد موت مراتك، مافيش حد أثر فيك خالص...؟

سألت الفتاة وهي تتراوح بين ربوع المكان ذهابا وايابا بخطواتها البطيئة التي تنقل إلى يونس رسالة تقول: بص حوليك مرة واتنين وتلاتة، أكيد مافيش حد في المكان أثر فيك غيري.

همهم يونس مرة آخرى وهو لا يفهم الرسالة، قال لفريدة العاصي مرة واحدة بصراحة شديدة...

- عايزة تقولي ايه يا فريدة؟ اللي عايزة تقوليه قوليه بمنتهى الصراحة أرجوك... بلاش لف ودوران...

أقشعرت فريدة وفكرت في أن تلقي كلماتها الصادقة التي تحمل عواطف بالغة في وجه حبيبها دفعة واحدة، ولكنها لم تستطع، استأذنت من الرجل أن تذهب لتشرب كوب ماء كي تعيد اتزانها النفسي والعاطفين وتعود إليه مرة آخرى كي تحاوره في الموضوع المهم بينها وبينه.

غربت عن الغرفة دون أن تبرز نوايها ليونس، واكتفت بالقول...

- دقايق وهرجع تاني يا يونس... استناني بس أرجوك...

وتركت وميضا لامعا من الضوء ورائها لم يغلق الباب عليه بظله العاتم.

عقب يونس على أفعال فريدة العاصي المستحدثة...

- غريبة قوي البنت ديه.

وأخذ يتذكر كل أفعالها التي لم يستطع أن يتبين نواياها على مر الأسبوعين السابقين، كل ثانية ابتمست فيها مخصوصا له وهي تقف جواره حينما كابد عرض من الأعراض الجانبية التي فرضتها عليه العلاج بالدواء مثل الاضطراب العصبي، وكل ثانية جلبت إلى صدره السعادة حينما شعر بضيق شديد في اصدر نتيجة بقائه في غرفة المستشفى وحده ساعات طويلة.

- إلا قولي يا يونس... تفتكر انا هسيبك كده قاعد لوحدك مخنوق...؟

تذكر هذه المرة وهي تميل عليه بطريقة رومانسية.

- ماتخفش يا قلبي... أكيد الدكتور كان بيهزر معاك... وحتى لو هتعقد في المستشفى هنا على طول... وراك حد تعقد جنبه وكنف تميل عليه وقت الشدة...

وتذكر هذه المرة التي مسحت فيه على رأسه حينما داعب معه الطبيب بطريقة سخيفة، أخبره يومها أنه سيبقى في المستشفى طول العمر إن لم يلتزم بأخذ الدواء وحضور كل الجلسات.

وأخيرا وليس آخرا تذكر هذه المرة التي همست في آذانه...

- وانا هفضل معاك على طول يا... حبيبي... وعايزة أشوفك أسعد واحد في الدنيا...

أدرك يونس وهو يتذكر كل هذه الحوادث الاحساس الذي يدور في قلب فريدة، وتمنى لو أن هذا الاحساس الذي شك أنه يستحوز في قلبها ليس هو الاحساس الذي يفكر فيه.

همس في نفسه مئات المرات أسفل بأنفاسه الباردة...

- يا رب مايطلعش هو... الحب اللي بيعمي القلوب وبيهد القصور...

استحدث يونس ذكرى زوجته الخائنة، واستنبط من هذه التجربة أنه فاشلا في العلاقات الزوجية، ولن يستطيع أن ينشأ عائلة مع مرأة آخرى، حتى وبعد أن تحدث الطبيب معه آلاف المرات محاولا اقناعه أن يبطر جزور هذا التفكير النابتة في عقله.. تفكير يونس الحزين الذي أثر على عقليته وجعلته يفكر بسلبية دائمة حينما تخبره أي امرأة انها تحبه وتريد أن تعيش معه.

استنبط أنه لا يصلح كصديق أو حتى زوج إلى – أو حتى يدخل في أي نوع من العلاقة الجادة – مع هذه الممرضة عشقته، والتي لم يشك أنها تريد أن يصير بينها وبينه شيء رسميا. قرر يونس أن ينكر عشقها له ويقول لها في وجها بصراحة شديدة في المرة القادمة، حينما تقرر المرأة أن تواجه بصراحة وتصرح له عن حبها، أنه لا يصلح كعشيق لها، ولم يفكر في قول غير هذا مطلقا.

- هتيجي تقولي بحبك هقولها بصراحة... ماينعفش... هي اساسا ماتنعرفش انا مين ولا انا شفت ايه...

قال يونس قبل أن ينهض من على مضجعه بحركة بطيئة، متجها خارج غرفته كي يحصل على كوب ماء، مستقبلا مفاجأة قوية لم يتوقع أن تنتظره عقب فتح الباب المردود.

استقبل يونس فريدة على مسافة قريبة منه جدا فجأة وهو يفتح الباب استقبالا لم يتوقعه أبدا، فقد استقبلها تكتنف بين ذراعيه في عناق حميم.

ذعر يونس حينما لاحظ فريدة العاصي تعانقه بقوة وغصب، وتمتد في عناقها كما لو كان زوجين...

نفذ يونس من بين ذراعيها وهو يقول لها بصوت خافت كضوء الشمعة الواهن في غرفة مظلمة...

- منظرنا قدام الناس!

لم تذعر فريده مثله وردت عليه بثقة نفس قوية...

- انهي ناس...؟ الناس اللي مابيشوف نفسهم قدام الناس التانية عاملة ازاي ساعة لحظاتهم الغلط؟ ولا الناس اللي عايزة تشوف الحاجة صح على حسب مزاجها؟

رد عليها نوح في تذمر وازدجار...

- فريدة...؟ ايه اللي أنت بتقوليه ده...؟ ما يصحش كده... أنت في مكان عام...

لم تمنح فريدة الفتى فرصة ليتجاوب معها بالكلام، وقالت له وهي تقبض يده وتدفع به نحو ممر شبه خال في المستشفى... لا يقف فيه سوى رجلين مع طبيب وامرأة مع ممرضة بدينة...

- انا تعبت من شغل اني اعقد أكبت نفسي ده علشان رأي الناس...

ثم صرخت في آذانه صرخت علمت على ذاكرته المتوسطة صرخة لم ينساها أبدا حتى وبالرغم من أن قوتها ليست كافية كي يسمعها أحد غيره.

- انا مش هكبت نفسي أكتر من كده بسبب الناس اللي عايزة العواطف تظهر في الوقت اللي يحددوه... يونس انا...

وقبل أن تكمل عبارتها، العبارة المألوفة التي لا تدوم سوى ثمان أشهر بين الحبيبين أو الزوجين, وضع يونس اصبعه على فمها هامسا فيه بنفس ساخن تدفق من ثغره الضيق.

- هشش.... متكمليش...

همس يونس في وجه سناء بعد أن أغلق على ثغرها باصبعه باحكام شديد. قال لها قبل أن يرفع اصبعه عن شفتها المحشوة بالميك اب.

- ماتكمليش الجملة ديه. ومش من حقك تكمليها. أنت ماتعرفيش انا مين ومريت بأيه. وماتعرفيش ايه اللي ممكن يحصلك بمجرد لما تكملي الجملة ده. جملة ( أنا بحبك ) مش بنشيل مساوئها إلا في وقت بيكون عصيب، والوقت اللي بيكون عصيب ده روحنا بتكون متعلقة فيه بين الأرض والسما. فلو سمحت... متعديش حدودك. أنت مجرد ممرضة.

واستنشق يونس نفسا باردا وعميقا بعد أن أنهى كلماته، متوقعا أن تثبت سناء أمام كلماته برسوخ، وترد عليه بطريقة باردة مثله.

ولكن توقعاته دفنت في أعماق الأرض حينما صدم من رد فعل سناء العاطفي الغير متوقع.

كشفت نفسها الغاضبة باصابعها المفترقة عن بعضها البعض بمسافات صغيرة... وصرخت بوجه مصدوم...

- انا مجرد ممرضة؟

رددت صرختها مرة آخرى قبل أن يلتفت إليها بعض من طاقم المستشفى والزوار المرضى فيها.

- انا مجرد ممرضة بعد كل ده يا يونس...؟

فظفرت دمعة من عيونها لم يستطع يونس أن يصمد أمامها كالصخرة الصماء.

رد عليها مبررا وهو يأمل أن يهدأ من روع الفتاة...

- أنت مش فاهمة انا عايز أقول ايه. أنت مش فاهمة قصدي خالص...

ثنت سناء رقبتها وأغلقت عينها اليسرى ثوان قبل أن تفتحها وتكشف احمرارا شديدا طغى على بياض عيونها الطبيعي... ثم قالت وهي تجز على اسنانها...

- طب فهمني يا يونس أنت كان قصدك ايه في الجملة اللي فاتت بأني مجرد ممرضة بالنسبالك... معلش... فهمني... أصل أنا غبية حبتين... يا أخي ده أنت لو قصدك تقولي أنا أقذر انسانة في الدنيا كلها، مش في حياتك بس، مش هتقولي كدا.

لف يونس اصبعيه حول فمه وهو يلتفت إلى بعض العيون التي ثقبت البقعة التي وقف عليها مع سناء، فهمس في آذانها وهو يهش إليها...

- وطي صوتك... وكلميني بصوت واطي زي ما بكلمك... واديني فرصة أتكلم.

هدأت سناء قليلا ثم همست إلي يونس وهي تبسط كفها إليه.

- أتفضل... فهمني بقى أنت عايز تقول ايه... خد فرصتك...

أخذ يونس سناء وسار معها بضعة خطوات في المستشفى، متنقلا بها إلى جانب آخر من المصحة النفسية يبدو شبه خالي من السكان، مثل الممر الذي تحدثا فيه، وإن كان الخلاء فيه أكثر من خلاء الممر السابق.

أغتنم يونس الفرصة التي سنحت له حينما تابع رجل شاب غارق في حواره مع طبيب كهل في هذا الجانب من المستشفى، لا ينتبه أي أحد منهم إلى ما حولهم. تلى على سناء قصته الحزينة وراء مجيئة إلى المستشفى، محاكيا النمط المصري الدرامي الحزين وهو يستنقي الفاظه اثناء تلاوته لقصته عليها.

- تعرفي انا مين أو انا هنا ليه... صح يا سناء...؟

توقع أن تمتنه سناء عن الاجابة وتصغي بآذانها له، ولكن الفتاة ردت على السؤال بمعلموات صحيحة مائة بالمائة، تحصلتها عنه من نوح الذي يتحدث معها على الهاتف بين الوقت والآخر.

- انت يونس... يونس اللي طلق مراته لما مراته خانته مع راجل أغنى منه... يونس اللي بقى مدمن بسبب صاحبه لما قرر ياخد الموت وماعرفش ينسى مراته...

حك يونس اصابعه في ملابسه البسيطة التي ارتداها، وعقب على سناء في سخرية شديدة...

- انا شايف فعلا أن الدكتور بيحافظ على أسرار حالته.

لوت سناء رقبتها مرة آخرى، وقالت وهي تمسح دمعة سالت من عينها اليسرى دون أن تلاحظ.

- مش الدكتور اللي قالي على الكلام ده خالص يا يونس... ده سي نوح الله يخربيته اللي قلتلك تبعد عنه هو اللي قالي... ومن ساعتها لم عرفت عنك كل حاجة منه وأنا بقيت شغوفة بيك وبشخصيتك. شايفة فيك كل حاجة مش أي بنت هتلاقيها في الراجل من الفلوس والمكانة في المجتمع. حتى وانت معندكش أي حاجة من ديه وبتتعالك في مصحة نفسية وانا اخترتك وانا متأكدة أن اختياري هيطلع صح.

اقشعر يونس حينما سبته سناء بهذه الكلمات، فرفع كفيه وشاور بهما عليه كما لو كان يدفعها بعيدا عنه قائلا له.

- اهدي طيب يا سناء... اهدي...

ثم غير نمط الحوار، كي يستدرك من كلامها كيف أن نوح يعرف كل شيء عنه والأسباب الذي جعله يدخل المصحة النفسية حتى وإلم يتقابل معه ويتعامل معه مطلقا.

- براحة كده يا سناء... انت قولت ان نوح عارف عني اني طلقت مراتي ودخلت المصحة بسبب كده، من جهة غير مباشرة لعبت دور كبير في الموضوع اسمها الادمان. قوليلي ازاي نوح عرف عني اني في المصحة علشان كده وانا عمري ما اتعاملت معاه.

أخذت سناء مجلسا بعد أن أرقهتها مرافق قدميها، ثم ردت عليه وهي تطيل النظر إلى وجه الذي احتسبته وجه ملاك في نظرها.

- نوح بيعرف عنك كل حاجة عن طريق صحبك يا يونس... ويوميها – يوم ما أتصل بي – بلغني كل حاجة عنك... ومن هنا عرفت عنك انت مين وايه.

بدا يونس متحيرا لبرهة، وسأل سناء مستدركا هذه الدائرة الصغيرة من القرابة.

- يعني نوح بيعرف كل حاجة عني من صحبي... واتصل وقلك عن السبب اللي انا وراه في المستشفى... يبن الكلب يا شبح...

ومال يونس بطريقة درامية، ثم سأل سناء في اقتضاب شديد وهو يلفت نظره إلى سؤال آخر لح عليه عقله سؤاله لسناء...

- ونوح بقى يقربلك ايه علشان يتصل بيك ويحكيلك عني؟

بدلت سناء الملامح الرومانسية على وجها بملامح صارمة كالتي ظهرت على وجه يونس، ونبهت يونس إلى حقيقة نوح مرة آخرى، إلى جانب الحقيقية السرية عن نوح وعلاقته بها.

- نوح ده هو اللي بيحبني يا يونس... ومقتنع أنه علشان بيحبني يبقى لازم أحبه... ومن ساعتها وانا بحاول أخلص منه بس عمري ما جالي النصيب أني أعمل كدا.

ردد يونس كلمات سناء مرة آخرى، ثم سأل بدقة وهو ينظ

- من ساعتها وانت بتحاول تخلصي منه بس عمرك ما جالك نصيب تعملي كدا؟

فردت سناء بسرعة ولهفة.

- نوح اللي قتل أبويا، نوح اللي عنده استعداد يقتل أي حد بيحبني. نوح هو سبب جحيمي، ورغم دا انا عايشة على آمل من زمان أني الاقي واحد زيك يخلصني منه ومن شروره لما نحب بعض ونتجوز... احطه في الأمر الواقع

انه عمر ما هيمس شعره مني أو منك لأنه عارف انه لو عمل كده هيدمر سعادتي، وهو بيحبني قوي لدرجة انه مش عايز يدمر ساعتدي مرة تانية زي ما عمل بعد لا أقتل أبويا وكرهته.

جز يونس على اسنانه حينما سمع هذه القصة من سناء، وأحس بالضيق الشديد ورغبة شديد في التدخل لكي يصونها من شر نوح، ولكن سناء أسرعت قولا قبل أن يتخذ يونس أي اجراء ضد نوح، قائلة...

- وهو ده نوح اللي انا بقلك انت لازم تبعد عنه...

وفي نفس ذات الآن... في منزل العم أيوب... يوم غربت فيه شمس أرواح عن سماء المنزل تاركة قمر أيوب يعتم فيه وحدة بجسده الهالك والمظلم.

ضرب على باب المنزل بقوة كف من حديد كاد يكسر الباب قبل أن يضرب الرجل ضربته الثالثة.

حرك عم أيوب كرسيه المتحرك الذي شرد عليه مشلولا بعد أن أطعمته أرواح السم الذي أعده لها، وفتح الباب بيده اليسرى – شبه السليمة – قبل أن يقتحم الرجل المنزل ويطربق سقفه على رأس الرجل المسكين.

- نوح وصل...

صاح الطارق بصوت سافك للدماء لم يجف حلقه من دماء فرائسه التي سبحت فيه، فجعلت صوته ثقيلا وخشنا مؤلما للآذان بنبراته الحادة المزعجة.

- خش يا نوح...

أمر أيوب عبده القاتل بلسان أعوج أخذ وقتا حتى يقلب الكلمات من فمه المشلول إلى آذان مرتشف الدماء.

دخل أيوب المنزل وهو يجس رقبته قائلا بصوت لين ورقيق يتحدث به الخادم المطيع إلى سيده...

- برقبتك يعم أيوب... قولي بس أنت طلبتني ليه انهردا؟

كشف أيوب اصبعه الطويل إلى نوح، قاله له وهو يحرك عينه التي تخللت وجه صلب كالصخرة...

- بص على الدبلة اللي فيه.

فمال نوح برأسه، وألقى نظرة عميقة على دبلة العم الأيوب التي نسجت معدنها من الفضة الخالصة.

- مالها دبلتك يعم أيوب... فيها مشكلة...؟

عنف أيوب نوحا بسبب سزاجته لأنه ظن أن المشكلة في الدبلة، وليست في الوتد الأساسي وراء الدبلة.

- فيه ايه يا غبي...؟ يعني أنت أذكى اخواتك ساعت القتل وبرا القتل أغبي الأغبيا...؟

ركع نوح ثم التمس العفو بصوت لين...

- سمحني عم أيوب لو أن مالتمستش مقصدك من النظر للدبلة. لو عايزني اشوفلك حد يتصرفلك فيها اتصفرلك فيها مافيهاش مشكلة.

أقشعر أيوب حينما سمع نوح يقول له أنه سيبيع له هذه الدبلة، ظانا أن نوح يشكك في قدراته في بيع الأشياء بثمن الذهب وشرائها بثمن رغيف مهما كانت قيمتها في السوق.

- لا... ده أنت غبي بقى... أنا بتكلم عن مراتي أرواح...

وصرخ كوحش الغابة الذي يصدر رنين قويا في الغابة بصحوته الهائلة، رنين يهز الأشجار بقوة يسقط أورقائها أرضا ويجعلها أوراق ذابلة، رنين يعلن الحرب العصبية بين كافة الحيوانات في الغابة... خوفا ومهابة من هذا الوحش الذي أقر أنه سيبدأ بالصيد حينما صاح صحوته العظيمة في هذه اللحظة الدقيقة...

- انا بقلك ارواح...! مشكلتي أرواااااح يا نوح....! عايزك تخلص من أرواح....

تحير نوح ولبس على وجهه قناع الخوف حينما تلقى عن سيده أيوب أنه يريد التخلص من زوجته أرواح.

- أرواح....؟ بس ليه أرواح يا أيوب...؟

سأل نوح وهو يحاول بلع ريقه الذي تشابك بين طرف لسانه ولسة خده الملتهبة.

- ماتقوليش ليه يا نوح... أنت تسمع وتنفذ....! السمع والطاعة لي وبس قبل أرواح... أنت عارف كده...

صرخ أيوب وهو يلوي لسانه بقوة وقسوة، وقبل أن ينهي كلماته عض على لسانه خطأ، أحس بسبب هذا ألما شديدا.

ألتزم نوح الصمت بعد أن قال لأيوب...

- أرواح ديه اعتبرها ماتت يا أيوب...

هز أيوب رأسه موافقا، وقال له قبل أن ينصرف إلى غرفته معلنا انصراف نوح عن المنزل حينما دفع بعجلات مقعده المتحرك إلى الأمام.

- مايعديش عليك بكرا غير ولما أرواح تكون في كفنها. أتمنى يكون كلامي مفهوم. ومأتسلش ليه أنا عايز أرواح بالذات ميتة. تصبح على خير.

وثابر أيوب ثباتا عميقا طول الليل بدأه حينما غرق في فضاء من الظلمات اكتسحت غرفته الصغيرة في منزل المشعوزة الشريرة.

ألقى نوح نظرات أخيرة على أيوب وهو يدخل غرفته، وقال في غموض وغرابة قبل أن يختفى الرجل من أمام مرمى عيونه الزرقاء.

- راجل غامض العم أيوب ده. الأول بعتني أقتل فلان الفلاني اللي كان واحد قريب منه لما اتعرفنا، ودلوقتي عايزني أقتل مراته اللي ياما خدمتها وقتلت علشانها زي ما قالتلي... سبحان مغير الأحوال...

كشف نوح سكينته وهو يلف بوجهه إلى باب الشقة الذي دخل منه... ثم قال وهو يغرب عن المنزل كما لو كان شخصا غير مرغوب فيه، ساحبا الباب ورائه بكل قوة حتى أصدر الباب صوت رعديا يرهب السحابة السوداء التي طافت بالمنزل في سماء الدجالين.

- طيب... زي ما تأمر يا سي أيوب...

وترك مكانه ذاهبا كي يتخلص من السيدة أرواح بملامح وجه لا تبدي فرقا بين شخصه وهو يقتل أي حد آخر غير المقربين إليه، كسيدته أرواح التي سيذهب إلى مرتجعها السري كي يتخلص منها، وسيده أيوب نفسه الذي لن يتردد في قتله إن وصله أمر بهذا من شخص أعلى منه هيبة ومقاما.

مكتب البريد... الساعة الرابعة عصر اليوم التالي...

طوابع تحمل أسماء ( يونس ) ( أيوب ) ( فريدة ) ( نوح ) تصدر ضجة في المكان حينما طلب من أصحابها مرارا وتكرارا الذهاب واستلامها من المكتب عن طريق رجل البريد العنيد، الذي ألح على أصحابها مرارا وتكرارا الذهاب إلى المكتب واستلام رسالتهم.

ذهب أصحاب الرسائل إلى مكتب البريد، كل على حداة في ساعة مختلفة من نفس اليوم...

وكم كانت الصدمة قوية على قلوبهم جميعا حينما قرأ كل واحد منهم المدون في ظرفه الخاص التي وصلت إليهم من شخص مجهول يزعم ضرورة حضوروهم اجتماع سري دبره...

- إلى أيوب... الساعة الحاسمة قربت ولازم تجيلي في المكان ده بعنوان (...) قدام بقالة الموت الساعة الثامنة مساء. ضروري تيجي... ظرف مهم مستنيك.

- إلى نوح... من سيدك الكبير، أمر منك تيجي في تمام الساعة الثامنة مساء البيت المهجور... ضروري تيجي... الأمر حياة أو موت، ومصيرك معلق في استجابتك للأمر المكتوب في الظرف.

- إلى فريدة العاصي... المعلم الكبير بيناديك... لازم تحضري... المكان بعنوان (...) الساعة الثامنة مساء. مستقبلك يعتمد على حضور الميعاد ده...

- إلى يونس اللي عمري ماشفته... ضروري عليك تيجي البيت. العنوان (...) قدام بقالة العم أيوب. لازم نتقابل... لازم تيجي... تحيات منقولة من الزعيم الكبير.

وأنصرف كل على حداة إلى البيت المهجور الذي ذكر في الرسائل، كل يخفق قلبه في هلع وسرعة خشية من هذا الحدث العظيم.

كل سأل نفسه: مين اللي بعت الجواب ده؟

ولم يتوسل أحدهم إلى الإجابة...

كل أكتفى بالذهاب إلى مرتجعه إلى حين حلول وقت قليل قبل ميعاد الاجتماع بساعة أو ساعتين، فينزل من هذا المرتجع كي يصل إلى البيت المهجور في الميعاد المضبوط.

قلب

# الباب السابع

# النهاية

اجتمع الرجال على حافة الطاولة، جالسين على مقاعد تراثية توحي بقدم وأصالة المكان. جلس الجميع في خشوع بعد أن دخلوا المنزل المبهم العتيق الذي ورد عنوانه في رسالة كل واحد فيهم... يونس... أيوب... نوح وفريدة...

بدأ الليل يشق سبيله بعد مغرب هذا اليوم، وانتشر السواد في السماء عقب أمطار فجائية قليلة نزلت على الحي الذي انشأ فيه المنزل المجهول منذ أيام الستينات، وبقالة الموت التي عمرها عم أيوب منذ أن كان شابا.

درست فريدة العاصي ملامح المنزل العتيق قبل أن تدخله أول شخص في تمام الساعة الثامنة إلا خمسة... وانبهرت بالأساس الهندسي الذي نشأ عليه المنزل. منزل عملاق وضخم قوامه طابقين، عرضه يمتد من نهر الفراط إلى نهر النيل، وسطحه مثلث الشكل كما لو كان فيلا يمتلكها رجل ثري في الريف.

وقعت أعين فريدة على الساعة الذهبية المعلقة على جدار كبير تقع في وجه الباب، تستقبله الأعين أول شيء حينما يدخل صاحبها المنزل.

رأت فريدة عقرب الساعة الكبير يدور بسنه المحدب ويتوقف عند الثانية عشر.

استقبل رجل يرتدي سترة رسمية سوداء فريدة حينما أعلنت الساعة حلول الثامنة إلا دقيقة بناقوصها المتردد، وأرشدها إلى أوفاد كثيرة من المقاعد المريحة على جانبها الأيسر...

- أتفضلي اعقدي يا فندم...

استقبلها الخادم وهو يبسط كفه نحو كرسي انتريه كبير افترش عليه فرش لونه أحمر ومريح. جلست فريدة على المقعد وارتدت سترة لباس العميق. لم يسمع المكان أي نفس آخر من أنفاسها غير النفس البارد الذي دخل صدرها من فمها الرطب وخرج دافئا من أنفهما الصغيرة.

دقت الساعة الثامنة والخامسة...

ووصل المكان مسكين مهمل الهيئة، استعطفه الخادم بنظراته المشققة وهو يقول في نفسه...

- حتى الناس اللي زي ديه بقم بيخشوا اللعب الوسخ ده بتاعك ده يا كونكان...؟

لم يسمعه يونس يقول هذه الكلمات، وأكتفى بسؤال الخادم.

- لو سمحت انا هتقابل مع حد هنا. فيه حد بعتلي جواب مخصوص وطلب مني اقابله في العنوان ده.

اهمل الخادم سؤاله متبعا أوامره التي وردته من سيده، بأن لا يجيب أحد على أي أحد شيء كما لو لم يكن موجودا في المنزل، ويهدي الناس إلى أماكن جلوسهم حول الطاولة إلى حين وصول صاحب المنزل... فقط لا غير.

- اتفضل...

قال الخادم وهو يهدي يونس إلى كراسي الانتريه حيث صدم بشدة حينما وقعت عيونه على فريدة.

بادر بسؤالها...

- فريدة...؟ أنت ايه اللي جابك هنا...؟

هزت فريدة رأسها، وقالت مستنكرة...

- جالي الجواب اللي قالي لازم أجي هنا.

اقترب يونس وجلس جوارها وهو يتأمل المكان بنظراته الساقبة...

ثم قال وهو ينظر إلى فريدة نظرة حائرة...

- أنت برده جالك جواب بعنوان البيت ده من راجل مجهول...؟

وهز رأسه لها مرة أخيرة...

- انا مش مطمن...

اكتفت فريدة بالنظر إليه هذه النظرة الغامضة التي قلت خلالها راسلتها: ولا انا برده...

وفي نفس ذات اللحظة...

وأعلن خارج عن القانون وصوله إلى المنزل حينما ضرب رصاصة عشوائية في الهواء، وقال لهوا وهو يسعى داخل المنزل فسادا بخطوات متبخترة...

- البيت ده بقى بتاااااعي...

استقبل الخادم هذا الخارج عن القانون بهداوة وغموض بعد أن أنصرف من جوار يونس وفريدة، وطلب منه بهدوء أن يخفض سلاحه.

- يمكن الملكية الخاصة ده بتاعة واحد أكبر منك يا نوح بيه.

صدم نوحا حينما فاجئه الخادم باسمه وقرر أن يتمنع عن عبثه عسى صاحب المنزل الغامض يكون رجلا أكبر منه يعرفه منذ عهدا وزمن.

جلس نوح بعدها حول الطاولة تحت إمارة الخادم المجلس المريح، وصدم بشدة حينما رأى وأدرك يونس يجلس جوار حبيبته فريدة.

تصادمت طموحات فريدة حينما ظهر نوح في المكان، وظنت أن يونس دبر هذه المقابلة مع نوح في هذا المنزل.

صرخ نوح إلى يونس ويونس لا يستطيع أن يحدد شخصه لأنهم لم يتقابلا يوما...

- بقى أنت اللي فريدة مختراك علشاني؟

لم يفهم يونس شيئا.

- مش فاهم...

قال يونس وهو يتأمل ملامح نوح وينظر إليه بخوف شديد بعد أن سحب سلاحه من جيبه وصوب به عليه.

- نوح...! إيه اللي أنت بتعمله ده...؟!

صرخت فريدة في وجه نوح كما يصرخ مجنون من مجانين المصحة النفسية وجه طبيبه الخاص...

- نوح...؟

ردد يونس اسم الرجل الذي ثبته بالمسدس مكانه متحيرا.

- استشهد على روحك يا يونس...

قال نوح وهو يقترب من زند مسدسه بإصبعه البارد الذي لم يرحم أحدا من تذوق كأس الموت.

وفي ثانية بطيئة، قبل أن يطلق نوح رصاصاته على يونس، توقف فيها الزمان وتذكر نوح أن هذا الرجل الذي يقف أمامه هو السبب الرئيسي في ادمانه ودخوله المصحة النفسية.

لم يتملك يونس اعصابه في اللحظة التي سحب فيها نوح زند المسدس باصبعه، واندفع نحوه بكل عنف وكراهية قبل أن تخرج خرجت الرصاصة من فم المسدس وتصيبه اصابة بالغة.

صرخت فريدة وهي تصفع وجهها بقوة حينما اشتعل الموقف بين الرجلين...

- يونس.....؟!

ظنت أن يونس قد مات حينما سمعت صوت الرعد يخرج من أنبوبة مسدس نوح الطويلة، ولكن يونس لم يمت، كان فقد يرتاخ بعنف فوق نوح.

نهض الرجلان، وحاول نوح أن يطلق نيران مسدسه مرة آخرى كي يقتل يونس، ولكن يونس تجنب الضربة ولكمه في وجهه لكمة عنيفة دفعت به إلى قاع المريخ.

- بقى أنت بقى سبب ادماني ودمار حياتي؟

صرخ يونس في وجه نوح وهو يحاول أن يركله بساقيه.

- لا انا مش سبب ادمانك وبس... انا سبب موتك برده...

وقبض نوح ساق يونس بين يديه، فلواها بعفوية وأسقط الرجل على رأسه أرضا، وخرجت الدماء من فمه.

صرخت فريدة وهي تلطم مرة آخرى...

- يونس...! نوح...! بطلوا...!

لم ينصت أي منهما إلى طلب فريدة حتى أعلن خادم البيت وصول شخصية آخرى من الشخصيات البارزة التي فرضت سيطرتها على نوح وجعلته هر ساكن يقشعر مكانه كالفأر الذي يهاب القط أن يصطاده.

- اتفضل يا عم أيوب...

أعلن الخادم وصول الحكيم المشلول، ودخل أيوب على الجمع المتعارك بكرسيه المتحرك وهالة من الاحترام والوقار فرضها على كل من في المكان. لاحظ العم أيوب نوح في المنزل، ودرس افعاله المختلة فصرخ في وجهه بعنف شديد...

- نوح أنت بتعمل ايه؟!

افلت نوح يونس توا حينما استغربه العم أيوب وصرخ فيه كما لو كان والدا له.

- مش بعمل حاجة.

قال نوح كذبا، وعابر العم أيوب ابتسامة سطحية وهو يستكمل كلامه.

- انا بس كنت بمسي على صحابنا...

- صحابنا...؟

تسائل العم أيوب وهو ينظر بحيرة إلى فريدة العاصي وإلى يونس الذي سعى إلى النهوض من على الأرض بعد أن جعله نوح يتعثر عليها.

- اه صحابنا...

رد نوح على العم أيوب بكل فخر، وقدم الرجل والمرآة عليه بكل ثقة. عابر فريدة ابتسامة تنبع من القلب، بينما عابر يونس نظرة ثاقبة يقول له بها أنه يمقطه وسيقتله بعد هذا الاجتماع.

- أيوب، ده فريدة العاصي.. حبيبتي... وده يونس... واحد كده...

عقب عليه أيوب بسرعة مع انصراف الخادم لكي يفتح الباب لزائر جديد أعلن طلعته المضيئة على المكان المظلم، كما يطلع القمر البدر بضوئه اللامع ويقتل الظلمات في الفضاء العاتم.

- ويقربلك ايه يونس يا نوح؟

امتنع نوح عن الكلام ولازم صمت عميق.

تأكد أيوب من نوح أن هذا الصمت لا يدل إلى على شيء واحد يدركه جيدا، أن يونس فريسة من فرائسه التي أوقع بها نوح في مصيدته بطرق عديدة من طرقه الخبيثة التي لا تعد ولا تحصى، وهي إما عن الادمان أو القتل أو تجارة المخدرات. وداعب فكر أيوب أن نوح أوقع بيونس عن طريق الادمان الذي يلجأ إلهي كثيرا كحل يجذب به فرائسه حينما يريد أن يبطر عقل الفريسة مرة واحدة، فتصير مضغطة لحم طرية بين أصابع يديه القذرة.

- الست أرواح وصلت.

أعلن الخادم وصول أوراح إلى الجلسة، وانقلبت الملامح الهدائة المرتسمة على وجه أيوب مائة وثمانون درجة حينما التقطت آذانه اسمها. نظر أيوب إلى نوح نظرة طويلة لن تفارقه إلى يوم الدين وقل له رسالته خلالها...

- هي أرواح ما ماتتش لحد دلوقتي ليه؟ أنا مش كنت مديك أربعة وعشرين ساعة؟

نظر نوح إلى أيوب نظرة سريعة ووضع اصبعه الطويل تحت رقبته بسرعة، واخفاه في وهلة قبل أن تدخل أرواح عليهم وتجلس جوارهم.

- العيلة اجتمعت... منورين المكان...

قالت أرواح وهي تجلس على الأريكة جوار نوح.

نظر يونس إلى فريدة نظرة حائرة وهو لا يفهم المعنى التي قصدته هذه المرأة الغريبة. ونظرت فريدة إلى نوح نفس النظرة الحائرة التي نظرت بها إليها.

- قصدك ايه يا استاذة؟

عقب يونس محاولا أن يفهم المراد من كلمات أرواح، فعقب عليه أيوب حينما لم يستطع أن يتحمل انفته التي اضطرته أن يرد على المرأة التي كرها لأننا السبب في موت ابنه.

- قصدها تقول أن العيلة هتبقى أحسن من غيرها يا سي يونس.

- مش فاهم...

فقال يونس...

وكان سؤال يونس بمثابة الشرارة التي سجعل أيوب يود لو أن يكشف فضيحة أرواح على الملأ ويجعل نوح يتخلص منها ويطهر العالم من دمائها القذرة أمام عيون الكل، لأن الاجابة على السؤال تطلب من أن يبرهن نفسه وقضيته بصراحة أمام الملأ.

ابتسم نوح ابتسامة خفيفة وسعى إلى تهدأة الموقف، فقال وهو يرفع كفه نحو أيوب.

- العيلة لازم تفضل عيلة حتى ولو حصلت فيها مشاكل الدنيا.

ثم مال على أرواح بطريقة درامية وهو يقول...

- مش كده برده يا ست الكل؟

عض أيوب على شفاهه واعتدل في كرسيه المتحرك حينما أحس فجأة أنه ينزلق من عليه، وأدعى أن دمائه لا تفور حينما سأل بكبرياء ملك يحكم حاشيته.

- والاجتماع ده بقى ليه؟ ومين اللي عمله؟

لم يمتلك أي أحد جوابا مقنعا يستطيع أن يجيب به على سؤال أيوب. ولا حتى نوح الذي مال عليه وسأله بهدوء شديد.

فكرر أيوب سؤاله وهو يصيح عاليا بصوت رعدي رج المكان بقوة شديدة.

- الاجتماع ده ليه؟! ما حد يرد علي؟!

- بص احنا كلنا جاتلنا رسالة بتقولنا نبقى في البيت ده في التوقيت ده...

أقر يونس بنبرات هدائة وضعيفة، وكان أيوب على وشك ان يصرخ في وجهه ويخرج غضب السنين كلها عليه عن طريق تكرار السؤال عليه والتماس الاجابة منه مرارا وتكرارا، كما لو كان محققا يبحث عن الاجابة

من القاتل الذي قتل المجني عليه، ولولا تدخل الخادم بالاجابة في الثانية المثالية التي أسكتت فضول أيوب وجعلته يمتنع عن السؤال لكان يونس بركة دماء بأمر من أيوب.

- أنت هنا ليه؟ ماقدرش أرد عليك... أنت هنا علشان مين...؟ أقدر اجاوبك.

قال الخادم ثم مال نحو أيوب كالفنان في المسرح بعد أن أنهى دوره الدرامي... وقال كلمته الأولى والأخيرة...

- أنت هنا علشان الكونكان عايز تكون هناك.

وظهر فخر من وسط الظلال بعد أن اصطكت سلالم المنزل الفخمة أسفل اقدامه، وهاهبه الجميع بوجه مذعور.

خطى فخر خطوات سريعة اخترق بها الجموع، وفي لحظة صمت أمر فيها خادمه بالغروب عن المكان جلس جوار نوح كما لو كان صخرة صماء.

- ازيك يا معلم فخر...

رحب نوح بفخر... ولم يرد فخر السلام عليه.

نظر إلى أيوب نظرة غريبة، وقال فخر إلى أيوب.

- ماتحكيلهم...

أعرضت شفاه أيوب وسأل بغرابة والجميع ينظرون إليه بحيرة وانهداش...

- احكيلهم...؟

هز فخر رأسه ثم قال...

- ماتحكيلهم انا لعبت بيهم اد ايه؟ واحد واحد... من أول يونس لحد فريدة. أنا اللي خليت مرات يونس تطلقه لما بعتلها حساب الراجل اللي خانته معاه. وأنا اللي قلت لنوح يموت أبو فريدة في الأساس.. وانا السبب في كل حاجة بوظت عليكم حياتكم.

صمت الجميع ونظروا كلهم بصدمة إلى فخر، فتبادلوا نظرات الكره بين بعضهم البعض ونشبت بينهم جميعا ضجة عارمة.

ووسط هذه الضجة العارمة سنحت فرصة لنوح لم تعوض أبدا بالقضاء على يونس وتخليص فريدة من عشقه. فرفع مسدسه وصوب به على يونس، آملا أن تصيب الرصاصة قلبه في لحظة تشاجر فيها الجميع مع بعضهم البعض.

اطلق نوح الرصاصة على يونس في اللحظة التي وقفت فيها ارواح بينه وبين يونس معترضة الطريق دون أن يهتم إلى عواقب أفعاله.

أصيبت أرواح في قلبها وسقط قوامها، شاهد أيوب هذا المشهد بسعادة شديدة وغمر على قلبه بحر من السرور. وما لم يتوقعه أيوب أو أي أحد في الاجتماع قد حدث، فقد مات أرواح أمام عيون الجميع واضطرب كل شخص جلس حول الطاولة، بما فيهم فخر، وظن الكل أن نوح سيقتلهم لأنه فقد صوابه.

- عفارم عليك يا نوح...!

صرخ أيوب.

التفت إليه يونس وهو يحملق بعيون بارزة.

- عفارم عليك؟ عفارم عليك؟ ده مجنون وقتل قتيل ادام عنينا!

صوب نوح مسدسه مرة آخرى على يونس وصاح فيه...

- اثبت عندك يا يونس! شوف أنت عملت ايه يا أخي؟ الرصاصة كان قصدها فيك، مش الست أرواح الغلبانة!

التقط أيوب وصف نوح لأرواح بأنها "الغلبانة" وثار ثورة شديدة على الرجل، وأخذ يعنفه تعنيفا شديدا دمر اعصابه في لحظة عمياء لا يفرق فيها نوح كالأعمى بين العدو والصديق.

انسحب فخر من المشهد مع فريدة التي اتخذت خطوات حائرة نحو الظلمات، آملة أن تفر بروحها من المكان، ولكن خادم فخر كتم انفاسها بكفه وجعلها مصمتة مكانها قبل أن تصيح ويلتفت إليها يونس ونوح.

فكر فخر في اختطاف فريدة معه والهروب بها كي تكون بطاقته الحمراء إن قرر نوح أو يونس مطارتده، فيهدد أحداهما بأنه سيطلق النار عليها وبهذا ينسحب نوح أو يونس من المطاردة.

خلع فخر من المكان في اللحظة التي ثبت فيها نوح أيوب ويونس بسلاحه...

وتقلدت عيون نوح نشان المسدس الذي صوب به على أيوب وهو يقول له تنديما...

- عمري ما شفت راجل بيقتل مراته. المعلمة أرواح ليها أفضال علينا يا أيوب. حد يعمل اللي انت عملته ده أيوب؟

صاح أيوب فيه في لحظة خاطئة...

- أنت بتعمل اللي أنت بيجلك تنفذه وخلاص...!

لم يطق نوح أن يتلقى أوامر آخرى من أي أحد، فأطلق النار على أيوب وأخذ يمزق اشلائه بتلذذ. اطلق نارا تلو الآخر على جسده، والرصاصات أخذت تثقب بدنه حتى غطت ملابسه في نهر أحمر من الدماء سبحت اعضائه المثوقبة فيه بعد موته هذه الموتة البشعة.

استغل يونس هذه اللحظة التي انهار فيها نوح على جثة فخر الميتة بالرصاصات غضبا وطيشا، وحدث توا لم يتوقعه نوح أن يحدث.

أختلس يونس السلاح من يده، وهرب الرجل من فك الضبع الذي الجمه كالعاجز مكانه، ثم ألقى بالكرسي على ساقه التي ادماها برصاص المسدس كي يضمن أن يشل مرة وللأبد ولا ينهض لمطاردته، وصرخ نوح صرخ آلم لم يصرخها في حياته، بينما صرخ يونس صرخة فراق قوية انبعثت من قلبه الهالع الذي خاف على فريدة من فخر وشروره.

ضرب يونس باب المنزل العالق ضربة قوية وعبر خلاله. وألقى نظرة على آخر الشارع ورأي فخرا وخدامه يدفعون بفريدة داخل عربة مسفحة كبيرة اكتسحت الشارع الضيق بحجمها الضخم.

أسرع يونس ورائهم آملا أن يقبض عليهم ويمنع عربتهم من الانطلاق نوع المجهول هربا، ولكن فخر لمح يونس يقترب منه وأمر خادمه أن يتخلص منه بينما يركب هو العربة ويديرها.

- بسرعة! أخلص منه!

اندفع خادم فخر نحو نوح وقفذ عليه. تعثر الرجلان أرضا وأخذ الخادم يلكم نوح بكل عنف وقسوة على جانب وجهه الأيمن مرة وجانبه الأيسر مرة آخرى.

احمرت خدود يونس وأحس آلام قارصة كآلام منشار يبدد لحم بدنه مع كل ثانية تمر وتمزقه إلى أشلاء صغيرة مفتتة كقصيلات الشعر المحترقة، وبالرغم من احساسه هذا الألم المتعب قاوم يونس ضربات الخادم واستطاع أن يبدل الجانب الرابح من الطاولة إلى حلفه.

حاول خادم فخر أن يضرب يونس على وجه ولكن يونس تقلد مقبض يده بكف واسع، فحاول بالجانب الآخر ضربه مرة آخرى ولكن يونس تملك زمام الأمور مرة آخرى، ودفع بالخادم بعيدا دفعة وقوية فتعثر على ظهره وسقط أرضا.

سحب يونس سلاحه وأطلق على مفاصل الخادم طلقات معوقة شلت حركته بسببها. نظر يونس إلى الوراء من ثم، والتفت إلى فخر الذي أعمل محرك عربته المسفحة وبدأ ينطلق بها كي يفر من المكان.

رفع يونس مسدسه إلى الهواء وأطلق رصاصات تحذيريه صرخ كل من في الحارة بسببها وفروا إلى بر الأمان وراء أستار خفية في بيوتهم، أندفع يونس بعدها نحو أقرب سيارة إليه وصرخ في صاحبها.

- أطلع من العربية بسرعة!

- في أيه يا مجنون!

لوح يونس بمسدسه وهو ينظر إلى عربة فخر التي انطلقت بمحركات صاروخ مندفع نحو الفضاء الخارجي، وصرخ مرة آخرى قبل أن تختفي العربة من انظاره.

- أخرج من العربية ياما هموتك!

- أنا هبلغ البوليس!

أطلق يونس طلقات شاردة على زجاج العربة، فخرج الرجل من العربة بأعصاب مضطربة وأعين محترقة حينما شاهد سيارته التي لا يسغنى قلبه عنها تسرق أمام عيونه من رجل لا يهاب القانون.

ركل يونس صاحب السيارة بعد أن شرد صاحبها عنها وأدطلق بها بسرعة وراء فخر، مقتطفا أثر سيارتهعن طريق سحابة سوداء كبيرة الذي ملأت كل مكان في الحارة الضيقة في الثانية الدقيقة التي اندفع فيها فخر بسيارته.

تتبع الرجل الدخان فدخل آخر اليسار في الحارة الضيقة، ووقعت عيونه على سيارة فخر بعدها.

أسرع يونس بأقسى ما لديه من سرعة حتى يقترب من سيارة فخر فيحاول أن يوفقها.

صرخ يونس بعوفوية في انعكاس فخر الذي لمحه في المرآة حينما صار على مقربة شديدة من سيارته...

- وقف العربية يا فخر! لعبك الوسخ كله انتهى... وقف العربية وسيب فريدة!

ولكن فخر عانده، فأختار طريقا واسعا سار فيه معاكسا لتيار حركة المرور وصرخ إلى يونس وهو يصوب بالسلاح عليه.

- انا اللي بحدد هنا اللعب الوسخ يا يونس، وانا اللي بقول امتى ينتهي وامتى ماينتهيش.

أطلق فخر طلقتين على سيارة يونس، واحدة منها كادت تصيبه لولا انعطافة سريعة انعطفها حينما كانت سيارته على وشك الارتطام بسيارة آخرى.

التفت فخر إلى سيارة نقل سار عكسها، فأنعطف انعطافة ضيقة لو لم ينعطفها سريعا بسبب ردود فعله الصارخوية لكانت سيارته انفجرت في الشاحنة ودهست أسفلها كالصرصار المسحوق.

فكر يونس في طريقة آخر يوقف بها سيارة فخر وفي نفس الوقت لا تضر بفريدة العاصي وتكون سببا في موتها.

صوب يونس مسدسه على اطارات سيارة فخر وحاول أن يصيبها.

أطلق رصاصة تلو الآخرى...

والتفت فخر إلى ما يحاول فعله...

فدهس بدلات السرعة وزاد من سرعة عربته قليلا، متجنبا العديد من الطلقات التي كانت على وشك ان تصيب اطارات سياراته.

أظهر فخر وجه من الشباك وقال بتيه وهو يغيظ يونس...

- يبن العنيدة؟! مفكر نفسك صايع يلا؟! ده انت كل اللي عملته واللي هتعمله فيه ألف واحد زيك حاول يعمله قبل كده.. بس مع الأسف كلهم فشلوا زيك.

ازدجر يونس وضرب على كلاكسي العربة بمقبض المسدس بعنف شديد، وخاف من أن يفشل في انقاذ سناء وهو لا يدري أنه سينجح في انقاذها.

وفي اللحظة التي سحب فيها فخر وجهه من الهواء الرطب الذي ضرب وجهه بقوة، صدم حينما رأى فريدة العاصي التي جلست في الكرسي جواره مطوقة اليدين بحبال متينة تدهس على فرامل السيارة حتى أخذت السيارة تتباطئ في سرعتها.

هددها فخر بأنه سيطلق النار عليها، ولكن صدمة قوية أخذت فخر غفوة حينما راقب يونس سيارته تتباطئ في سرعتها.

خرج يونس برأسه إلى الهواء الذي صفع خدوده... وأخذ يضبط نشانه على اطار سيارة فخر مرة آخيرة، وفي اللحظة المثالية التي وثق فيها أن رصاصاته ستصيب عجل السيارة، أطلق العنان للرصاصة المندفعة من

مسدسه، وشاهد عربة فخر معه في انزعاج تفقد توازنها وتتحول بسرعتها المضطربة نحو اليمين ونحو اليسار، وأخيرا تصطدم بعمود نور وتتمركز مكانها متحطمة ومتضررة بكل معنى الكلمة.

أوقف يونس سيارته، وبسرعة خرج منها وهلع نحو سيارة فخر وهو ينادي على فريدة بصوت عال.

- فريدة...! فريدة...!

ردد يونس ندائه الذي جهش به قلبه الباكي مرة آخرى، وفتح باب العربة الأمامي وهو يأمل أن يجد فريدة على قيد الحياة.

درس يونس الدماء التي سالت من أنف فريدة التي غرقت في حمام من الضغف سيطر عليها، لم تستطع أن تفعل أي شيء ولم تنتبه إلى يونس الذي وقف أمامها بقلب يأمل أن تنجو الفتاة من الموت.

نظر يونس نظرة سريعة على فخر الذي غرق في دمائه، مدسوس الرأس في زجاج السيارة الأمامي ومتضرر بشراسة بسبب جروح عميقة في رأسه ألحها الموت عليه حينما اصتطمت جمجمته...

وما لم يتوقعه يونس قد حدث... فقد نجى فريدة... ومات فخر مع شروره وسط قلعة الظلام السوداء التي ركبها، محترقا فيها بسبب انفجار عظيم ابتلعبها.

أحب أشكر كل حد وقف جنبي في الرواية وكل واحد فضل يساعدني ويقولي كمل هتوصل واحب اشكر ست الكل امي وأحسن حد في الدنيا أبويا وأشكر اخواتي وصحابي علي مساعدتهم بي كل الطرق وهفضل أقولها في كل مكان أمنيه واتحققتت و نهاية سعيدة لي بدايه جديده اهداء الى كل واحد قالي مش هتوصل وصلت علشان الحمدالله تعبت وأخيراً امنيه واتحققتت ..